محمد كمال محمد

الأعمى والذئب

قصص مصرية

الطبعة الثالثة

الليل يا فاطمة

كان الصوت يلطمنا عبر السقف البوصى حاداً جارحاً .. يشرخ جدار الليل عنيفاً يقتحمنا .. فتتداخل فاطمة فى حضنى مرتعدة .

يرتفع النباح البشرى مفزعاً ، تجاوبه الكلاب على بعدٍ مقابل من مدخل الجبَّانة .. كنت أصحو محيراً منزعجاً .. وكنت من على رأس الحارة ألمح بهلول ركة بين مدافن الجبانة ، مقعياً فوق كومة الحجارة القديمة وسط لمة الكلاب .. يناغيها ويهوهو معها .. فترتعد أعماقى .. وأسرع مبتعداً بدراجتى .

لساعات طويلة كان يحبس نفسه فى مكانٍ مظلم .. يحملق فى الظلام ويوقوق بخوف عندما يرى الماء والضوء .

على طول حارة الفُشْخ[1] الخالية من الدكاكين ، كانت النسوة منذ طلعة النهار يفترشن الأرض الطينية أمام أبواب البيوت ، يضربن بالمدق قحوف النخل فوق الحجر المسند بين سيقانهن اليابسة ، ليصنعن المقشات . .وفى البعيد كان بهلول ركة ناشف العود يدقدق بقدميه الحافيتين فى خفة ، ماداً بوزه كفوهة خرطوم وسط شعره الهائش الذى يكسو وجهه العظمى .. تنهض النسوة يهرولن منفرجات السيقان ـ لاحتضانهن الحجر طوال النهار ـ ويختفين داخل البيوت ، بينما يظل الرجال تتسكع نظراتهم على بهلول ركة من بعيد .. يمضى يتشمّم حواليه .. ينحط راسه أكثرمتدلياً من رقبته الطويلة .. تندلق دفقة من اللعاب على فكه الأسفل المشلول .. يتحرك داخل الجبانة ؛ ليختفى داخل جامع عمرو المعتم المهجور من زمن .

---

(١) بضم الفاء وسكون الشين

ساعة الغروب وفدت الكلاب من عند جامع أبى المعاطى .. وتكاثرت على رأس الحارة نابحة .. من بعيد ، وقفت أرقب بهلول ركة .. مهتاجاً يدور حول نفسه ، منتفخ الصدغين .. يعوى بصوت كالنواح ، عظمة كتفه العارية تبرز من فتحة جلبابه المشقوق ، زرقاء متورمة .. عرقوبه المخروطى يشخب دماً .. توقفت الحركة فى الحارة الضيقة .. وقفوا على بعد ينظرون نحو بهلول ركة .. لا يجرؤ أيهم أن يعبر من جواره .

ارتفع عواؤه .. التهبت خلايا مخّه بالنيران التى تسكنها .

قالت امرأة تطل من شباكها الواطىء :

ـ قذفه صبى النجار بالحجارة .. كان يهجم على ورقة اللحم النّيئ فى يده ، يريد أن يأكلها .

ركض بهلول ركة حتى رأس الحارة .. توقف عند الكلاب وعاد لاهثاً .. فزعت ذراعه فجأة والتوت خلفه .. ارتدت مرتعدة .. تبعثرت خطواته .

من جوارى مرقت فاطمة فى ملاءتها السوداء دون أن ترانى .. قفز بهلول ركة كقرد وتعلّق بحديد الفانوس القديم ، رفس الهواء بساقيه الطويلتين .. أخلت يداه الحديدة وترك نفسه يهوى على الأرض بمؤخرته .. انقذف يميناً وشمالاً على جانبى الحارة .

صاحت امرأة مرتجفة تمسك المدق عند بابها :

ـ ها هى جاءت .

توقف بهلول ركة مرتعشاً .. تعلقت عيناه بفاطمة التى وقفت منفردة لصق الحائط المقابل .. هدأت حركته وتوقف عواؤه .

احتوتنى لحظة بلهاء .. نظرت نحو فاطمة التى لم تنتبه لوجودى

.. كان وجهها الفاتن لا تغطيه البيشة الكحلية ، وكان جسدها اللدن الملفوف يتفجر بسحر لا تراه العين .

حمحم بهلول ركة كحصان .. وتقفقف كملسوع بالبرد .. كانت عينا فاطمة تفيض بشيء يلاحقه ويحاصره .

تراجع بظهره محنياً ليتدارى .. انزلق تحت عربة الكارو المهجورة ، وأقعى متطلعاً إلى فاطمة ، بينما ظلت نظرتها متطلعة نحوه بذات الشيء الذى يقتلعه من جذور ضاربة فى أرض مجهولة .

تحركت فاطمة عائدة ، فلوى بهلول ركة خلفها رقبته النافرة العروق ، جحظت فى وجهه عينان بلهاوان .. ارتعش جلد بلعومه المشلول .. برز لسانه الناشف من فمه .. راح يئنّ ويلهث .

* * *

قعدت جنب السرير جامد الحركة .. فرشَتْ فاطمة أمامى على الحصير خرقةً قديمة ، جرَّتْ من تحت السرير حلة كشفت غطاءها .. تناولت رغيفاً طرياً وضعته لى جنب طبق البطاطس المدهوك .

كنت أرقبها صامتاً .. ثنت ساقيها تحتها ، وجلست أمامى مرتكزة بكفها على الحصيرة تنتظر مد يدى للطعام .

تقافز فى ثنايا الحصيرة برغوث منتفخ ، سحقته بأصبعى وسألت فجأة :

- ما هذا الذى يحدث ؟!

أرسلت فاطمة إلى وجهى نظرة منكسرة :

- صدفة .. كنت ماشية .

- لا أريد كذباً .

أرخت رموشها السوداء المختلجة فى اضطراب .

- تعرفينه قبل تلك الحالة ؟
طأطأت رأسها :
- كان سيتزوجنى .
- من أجل هذا ينادونك له !
رفعت رأسها مدافعة :
- ليس فى كل مرة !
هدرتُ بغضب :
- وكيف تقبلين اللعبة ؟!
انحدر رأسها ، وتغرغرت عيناها .

كنت غريباً على المدينة الصغيرة دمياط .. تزوجت فاطمة حين جئتها حديثاً فى حارة الفشخ .. وسكنتها مجاوراً لبيت بهلول ركة .

من سنوات ، كان يصحو فى الفجر مسرعاً إلى السلخانة القريبة ليعود بسقط الذبائح ، ويقف بجلبابه الملطخ بحبر الأختام الأحمر على ناصية حارة العيد ، بعد انفضاض سوق السمك فى الغروب ، يبيع الطُّحال المقلى لزبائنه .

عاد من السلخانة ذات مرة بعضة كلبٍ مسعور هاجم مقطف الأمعاء الساخنة فى يده .. طمأنته أمه العجوز ، دلكت الجرح بليمونة .

استمر النباح فوق رأسى طوال الليلة كالولولة .. كالبكاء .. كالعويل .. وكان يتواصل منسحقاً .. يمتد فيه النواح .. يطول النحيب .. كان جسدى ينتفض فلا أحس برعدة فاطمة الملتصقة بى .. كان الحائط القديم المشقق منتصباً لعينى بدعائمه الخشبية المتسوسة كواجهة شائهة ذات ذراعين ، تتماوج فاطمة بينهما فى ليونة بتلك النظرة والشيء بذاته .. كانت سخونة جسدها الممدد تكوينى ، وكان

الفأر البشع يقرض عروقى لتنزف دمها .. ويظلُّ النبض الواهن يزلزل بدنى .. كنت مصلوباً فى فم طائر مهول ارتفع بى فى الفضاء مائة ألف قدم .. وتركنى لأسقط على قمَّة صخرية ، تسعى فى شقوقها الحيات والثعابين .. وأرقد مهشَّماً مرتعباً .. القنيضة الموعودة أنا ، فمتى أصرخ للعودة فى جوف الرحم الذى ولدنى !

* * *

اخترقت الجبَّانة ببهلول ركة فى رهبة الليل ووحشة الصمت .. كانت اللفافة فى يدى ، وكنت أعرف أنه تعشى من لحظات .. من وراء ظهرى تنسرق فاطمة كل ليلة لتُلقى له الطعام المهروس على سطح حجرتنا الملاصق لشباك سُلّمه .. اللعب مستمرة على غرابتها ، والنار فى داخلى ، والسواد يتكاثف أمام عينى .

كنت أخشى أن ينفلت منى .. يختفى فى أحد أمكنته المجهولة .. وكنت لا أصدق ، بعد ، أنى قدرت أن أجمع أشلاء نفسى .. كانت رائحته فى خياشيمى كالعجين الحامض .. وقف فجأة جاذباً ذراعه من يدى .. أطلق صوتاً كثغاء غنمة .. لمَّ ذيل جلبابه وحشا به فمه مطبقاً عليه بأسنانه .. ورفع إحدى ساقيه .. بان فى الظلام عريه ، فارتجفت بالخجل .. سمعت شخيخ البول وخرخرته يخترق الترا ب .. فازدادت بالرهبة رجفتى .

خلف ضريح «الست الوالدة» المنسرب من شباكه الضيق ضوء باهت توقفت ببهلول ركة .. فضضت اللفافة بيد ترتعش .. انتفخت طاقتا أنفه وتشمَّم .. استدار مبتعداً يدقدق بكعبيه ، لحقت به .. انغرزت أظافرى فى لحم ذراعه ، وأنا أجره لأقعده على الأرض .. ألقيت اللحم المغموس بسم الفئران أمامه .. برز لسانه طويلاً ممدوداً .. ظل

يتشمم دون أن يلتقط اللحم أو تمتد إليه يده .. كان شبعان بعد .. ممتلئاً بالطعام الذى قدمته يدا فاطمة .. تناولتُ اللفافة وقربْتُها من فمه .. تدافع فى خيشومه الهرير .. للتو انبثقت ـ كأنما من تحت الأرض ـ مجموعة من الكلاب ، فانتفضت مفزوعاً .. تطايرت قطع اللحم من يدى .. هجمت عليها الكلاب فجثوت بسرعة لأخلِّصها .. أطبق إحداها على معصمى .. تخلصت منه بقطعة لحم ، وجذبت بهلول ركة من طوق جلبابه .. فألصقته بصدرى .. قاومنى نابحاً ، وأنا أدفع فكه الأعلى بحد كفى ، بينما كظ أسنانه ، لأدس قطعة اللحم غصباً .. التوى فكه .. ضرب بقدميه الحافيتين الأرض كفرس يرجمها بحوافره .. تطوّح بين ذراعى يميناً وشمالاً .

ركع على ركبتيه .. حملق فى بفم مفتوح بانت كل أسنانه .. فجأة ضرب وجهى بالتراب .. وانطرح على الأرض مُديراً وجهه عنى .. تدافعت أنفاسه كالفحيح .. طوّحَ ذراعه بجانبه وقبض على شعر رأسى بيد كالمخلب ، جرَّنى خلفه زاحفاً على يديه وركبتيه .. ارتميت على ظهره بثقلى فانبطح راقداً على بطنه محدثاً صوتاً كصأصأة فأر ، ونبح بصوت عال .

تحلقت حولنا الكلاب مستفزة بنباحه .. نهش إحداها لحمى .. قضم آخر أصبعى .. لم أفلت بهلول ركة من يدى حتى غيبت قطعة اللحم داخل فمه ، وانزلقت عبر بلعومه ، بينما برزت عيناه خارج عظمتيهما ، كأنما ستسقطان عن وجهه .. وأطلق صوتاً كصفير ماسورة الطاحون .

جرى لاهثاً رافعاً ذراعيه .. ضرب بكفيه شباك الضريح الخشبى ودفع يديه ، كأنما يخرق حاجزاً فى مربعاته المحفورة .. فغابت خلف

الشباك حتى الكوعين .

ركضت أمام الكلاب تجاه البيت .. كان عواء بعضها المكتوى بالسم يختلط بالنباح .. اقتحمت الريح أنفى محملة بأنفاس الموتى .

غاصت قدمى فى كومة جافة من خوص النخل فسقطت .. خزت عنقى أطرافه كالإبر .. نهضت أواصل الركض قبل أن تلحق بى الكلاب .

طردنى النباح البشرى ملتوياً كلسان سكران يغرق نباحها .

* * *

كانت فاطمة تسخن لى الماء لأستحم عَقب الحقن كل يوم .. وكنت بجانبها أرقد بالألم النابح فى جراحى ، وتحت سُرَّتى المثقوب بالإبر والنار التى تكوى ، بفعل اللقاح ، جدار بطنى .

كنت أتمثلها فى حضن بهلول ركة لسنوات فائتة .. وكنت أعرق جنبها كثيراً .. وأحسها تشمُّ لعرقى رائحة تخنق .. كانت تظلُّ صاحية بالصمت الصخرى .. تاركة صمتها يجثم بثقله فوق صدرى .

لا شئ يدنيها منى .

والليل حولى ساكن سكون الأزل .

مجلة الثقافة ـ مارس ١٩٧٧

الأعمى والذئب

في مدخل الدكان وقفتُ صامتاً .. كان أبي متدلّي الرأس بين ساقي الرجل الجالس على المقعد المستدير ، يضرب حذاءه بالفرشاة .. سمع صاحب الدكان يدعوني باسمي لأجلس ، فحوّل رأسه ناحية الباب ، وارتعدت أشعار عينيه المغلقتين .. كأنما استشعر ما جئتُ من أجله !

توقّفَتْ يده للحظة بالخرْقة المسودّة بالورنيش ، قبل أن يلفها على أصبعيه .. اكتشفت في اللحظة أني بلا وعي .. أسرعت لألقى عنده بالشئ الذى يحط على صدرى كلوحٍ ثقيل من الرصاص .

سحبت الكرسي وجلست في جانب عتبة الدكان حتى يفرغ أبي .. ظلّت أصابعه تعمل في تضاريس الحذاء بقطعة الورنيش .. يتحسسها في سرعة ويزيح البارز منها في منحنيات الحذاء ومنخفضاته .. تزاممت شفتاه كأنما ، قبل أن أتكلم ، يحتجز الألم !

تلك اللحظة التي انقضت .. منذ تركت أم كوكب لأسرع إلى أبي .. حملتها في الصدر جمرات .

* * *

في الزقاق وأنا أقود أبي للبيت .. همهم بعد صمتٍ طويل أن أدعه وأرجع لأجئ له بأم كوكب .. وسألني :

- من أين تعرفها ؟

قلت إني أقابلها في الملجأ عند ابنتها صديقة أختي .

أضفت في أسى :

- أنها تحب زهرات .

في فناء البيت الطيفي تكوّم أبي على الحصيرة مستنداً إلى الحائط .

- سنروح أول ما يطلع الصبح لنجئ بأختك من الملجأ .

قلت إنهم لا يخرجونها فى غير إجازات الأعياد .
- سنكتب لهم لإخراجها ولن تعود .. لن نتركها هناك بعدما جرى .

* * *

على باب الملجأ ومعنا زهرات سألنى أبى خافضاً صوته :
- هل سألت عن الرجل ؟ حذّرتك أن تثير شكوكهم .. يجب أن نتجنب الفضيحة .
هممت أقول له إن الرجل غائب من يومين .
- الكلب !
نظرت إلى وجه أختى .. كان شاحباً شحوب الموت .
ونحن نسير ، دمدم أبى بكلام متداخل لم أتبيّنه .. جزّ على أسنانه وتحسّست يده كتف أختى :
- لا ذنب لك .. أعرف .. الخوف منعك أن تقولى لهم ماذا فعل بك الوحش .
حوّل وجهه ناحيتى .. تصلّبت عضلاته :
- ضاعت البنت !
قبض على ذراعى يهزُّها :
- يجب أن نعرف أين يسكن .

* * *

- كنت تجئ لى ، ثم تذهب .. فأقضى اليوم فى كآبة وحزن .
فى أيام الجُمع كنت أذهب إلى زهرات بالطعام القليل ، الذى أشتريه لها من أجرى الأسبوعى فى دكّان الخشب القديم .. كنت أجلس معها وسط الزائرين على الدكك الخشبية فى الفناء الواسع المكشوف ..

وحينما كان المطر يتساقط على رأسينا ، كنا نسرع لنتزاحم تحت شريط المظلة الخشبية بجانب جدران العنابر التحتية ونترك الطعام للمطر .

- كنت أحبك .. وأنت ؟

كنت أتعجَّل الخروج من المكان .. وأخبِّئ نظراتى فى عب قميصى حتى لا ألتقى بعيون الآخرين .. وأترك زهرات لألعب بكآبتى مع رفاقى الصبيان .

تقلَّبت فى جوارها على الفراش معذباً .. بهمس قلت :

- كنت كثيراً أحلم : كبيراً فى وظيفة .. أريح أبى من شغل الدكان عند رجل لا يرحم .. أخرجك من هناك لتعيشى فى البيت .. تطبخين لنا بيديك .. لنأكل من طعامنا نحن الثلاثة .

تنهَّدت زهرات .. فيما يشبه الهمس .. قالت :

- كنا نذهب أنا وكوكب بالأوراق التى ترسلنا بها الضابطة .. يومها استبقانى الرجل بعد ذهاب كوكب .. وأغلق الباب .

همهمت بصوت كالعواء :

- لا تحك لى !

صمتت زهرات .. فجأة قالت :

- أريد أن أهرب .

باغتتنى الكلمة .

همست أختى :

- هل ستقول لأبى ؟

- ولماذا تهربين ؟

بأسى قالت :

- لا مكان لى فى البيت .

- مخطئة .

ـ كنت غريبة بينهم .. وخرجت من هناك بعارى .. فلماذا بينكما يكون وجودى ؟

قلت فى حب :

ـ هو أبوك .. وأنا أخوك .

صمتت .

ظللت مفتوح العينين طويلاً حتى انغلق جفنى بالنوم .. فى الفجر ، وكأنى أحلم ، رأيت زهرات خلف غيمة صفراء تلبس فستانها القديم الذى حملته لها بالأمس هناك .. وتُمشّط شعرها بلهوجة ، وتعصّب رأسها بالوشاح المتهرئ .

أغمضت عينى .

سمعت صرير باب البيت كصراخ .. وعرفت أن البيت خلا من زهرات .

فى الصبح نادى أبى من حجرته .. فسددت أذنى .

دخل يتحسس الطريق للفراش .. انكمشت فى ركن الحجرة وأنا ألبس ثيابى .. كنست يداه الفراش الخالى .. صاح :

ـ زهرات ..

خرج ينادى بصيحاته .

دخل الحجرة ثانية .. زحفت يداه المرتعشتان على الجدار حتى وصلتا للمسمار الخالى من الثياب .. دار حول نفسه وصرخ ينادينى أطبقت شفتى حتى لا يفلت منى صوت .. انسرقت من جواره ، بينما كان يبحث عن عصاه .. وسمعت صياحه داخل البيت بعد أن أغلقت الباب خلفى مع صرخة الصرير :

* * *

-هربت أختك .
لم أنطق بشئ .
-ألم ترها وهى تخرج ؟
-كنت نائماً .
نطقتها بقلب يرتعد .
-قمت فلم أجدكما .
في يأس ظلَّ يضرب كفَّيه ببعضهما :
-مَن يبحثُ عنها .. أنت أم أبوك الأعمى ؟

* * *

قال أبى وهو يفرغ القوالح من الصفيحة الصدئة فى حفرة الفناء :
-هل رأيت الرجل ؟
-أرته لى أم كوكب .
-سيجئ الليلة . صفه لى .
رص القوالح وأشعلها بعد أن صب عليها الكيروسين .. قلَّب فى القوالح بطرف عصاه .
- كنا نتدفأ بهذه النار فى ليالى الشتاء .. أمك كانت توقدها .. زهرات كانت صغيرة .. كانت أمك تحبها .. كنا نجلس هنا حول الطبلية لنتعشّى .. أعطى أمك قطعة اللحم لها فتلفها بلقمة طرية وتدسها من تحت الطبلية لزهرات .. كنت أراها قبل أن تعجز عيناى .
فتحت الباب للطرقة الخفية كنقرة الأصبع .
دخل الرجل متردد الخطى .. فى تخاذل حيّا أبى بنبرة متوددة .. أطرق أبى برأسه .
جلس الرجل أمامنا على الدكة الخشبية المنخفضة .. نظر إلى أبى

مترقباً .

تمتم أبى بجفاء :

ـ أرسلت لك أم كوكب .. قلت نداوى الجرح .

مال الرجل بوجهه العريض إلى جانب .. حدّقت عيناه فى الأرض صامتاً .

ـ لابد أنك تعرف ما تنوى عمله .

حكّ الرجل أنفه المدبب بأصبعه وسكت .

زحف أبى على الحصيرة مقترباً من النار أكثر .. كانت الجمرات محمرة كعيون ذئاب فى الظلام .

ـ عرفت عنك بعض الأشياء .. زوجة وأولاد .. أهذا يمنع ستر العار ؟!

عبثت يد الرجل بارتباك فى شعر رأسه الغزيز :

ـ ليس هذا .. فى الحقيقة .

أطرق أبى لحظة ورفع رأسه :

ـ المانع أنها بنت ملجأ .. كان يمكن أن أبلغ . لولا الفضيحة .

زَم الرجل شفتيه المنحنيتين وسكت .

ـ لا أسمع منك كلاماً .. البنت هربت والفرصة أمامك .. لتدبر أمورك حتى تعود .

بنبرة مترددة قال الرجل منخفض الصوت :-

ـ قابلتها .

ارتجفت فك أبى وصمت فى ترقب .

قال الرجل بصوت يتراجع فى حلقه .

ـ ساعدتها للسفر مع أقاربى للكويت .. لتشتغل فى بيتهم .. هناك .

* * *

دمدم أبى بشئ لم أسمعه .. صحتُ مستنكراً :
- خادمة ؟

- أوصيتهم بها !
تلوّنَ وجهُ أبى بزرقة مخيفة .. انتفض يزأر .
- أبعدتها عنا .. لتهرب من جريمتك !
التقط عصاه .

نهض الرجل فى فزع وخطا نحو الباب .
انقذف أبى من مكانه واقفاً .. دفع قدمين متخبطتين أمام الرجل فتعثر وسقط .. قبل أن ينهض هوت على رأسه العصا فترنّح دائخاً وركع على ركبتيه .. أطبقت يدُ أبى على شعر رأسه .. جرّه لركوة النار مدمدماً بالحقد .. بينما قاوم الرجل فى ضعف ، غرس أبى ركبته فى ضلوع ظهره .. وضغط بقوة خلف رأسه .. فى لحظات لامست وجهه الجمرات المتوهجة ، فدفع به أبى فى عنف .

دوت صرخة الرجل .. انفجر شئٌ فى وجهه كتكة قفلٍ صدئ .
جثم أبى فوقه كجبل .

معاطى يتكلم :

هو الآن حرٌ طليق .. والجرح غائر فى القلب لا يشفى ، والدموع المقهورة لا تجفُ على أخى .. أيمكن أن أنسى كيف فعل به المخبر عرفان ما فعل ؟

الحبس سنة ، والطرد من الخدمة .. ولأنه قضى العام محبوساً رهن القضية حتى صدر الحكم ، فهو الآن حرٌ فى بيته ، وضاع هدراً دم أخى .

جاءه فى الصباح كالفيل يجرُّه إلى فاروق ضابط المباحث ، أركبْتُهما عربتى الحنطور إلى هناك ترضية لعرفان ؛ حتى لا يضربه فى الطريق .. مشيت خلفه حتى باب القسم أنادى عرفان متهيباً خائفاً أوصيه مستعطفاً بأخى .. التفت من فوق كتفيه بملامح قاسية ونهرنى :

ـ ارجع أنت يا عربجى !

جرَّ أخى من كتفه إلى حجرة ضابط المباحث .. «لم أحرق عشة العازق[1] . وتربة أبى وأمى ما أحرقتها . اسألوا أهل الحارة .. أقفلت دكَّانى المجاور ورُحت .. سمعت بالحريق وأنا فى بيتى .. جريت عائداً لخوفى على الدكان .. قالوا هناك صاحب العشّة ، أحرقها ورمى عدة القهوة والشاى فى الحارة ، وهرب من دمياط . أولاده يحاصرونه بطلب الفلوس وهو لا يملك فائضاً بعد الحشيش والأفيون » .

ـ تخدعنى يا ابن الواطئة .. الضابط فاروق لا يخدع .

هوت على وجهه اللطمات .

---

(١) كشك خشبى يقدم المشروبات .

سحب عرفان من جانب الدولاب الخيزرانة الغليظة المعروفة لأهل المدينة :

ـ قُلْ أحرقته يا ابن الزانية .. اعترف !

نزلت على جسده الضربات فارتفعت صرخاته .. داخ وهوى عند قدمي عرفان .

ـ قل .. اعترف !

مدّه على ظهره .. سدد قدمه إلى جنبيه برفستين .. انشرخ كبده .. تهتك طحاله .. شهق .. انبثق الدم من فمه ومات .

وعرفان فى دمياط مازال يقيم .. فكيف أطيق ؟!

* * *

عرفان يعلن لنفسه :

تجردت من كل قوة .. لن يعود يهابنى الناس .. أقبع داخل البيت .. لا أجرؤ على الخروج حتى لا أواجه الشماتة والكراهية بعد أن ولت سطوتى .. كطفل أنا الآن بين أطفالى الخمسة .. سقطت هيبتى فلم أعد نفس الرجل .. لا أقدر على العودة إلى قريتى .. كيف أقيم بين أهلى وناسى بعد ما هجرتهم وتنكّرت لقرابتهم ، حين جرى فى يدى الكسب الحرام .. وصرت المخبر الذى يطل عليهم من قمة السلطة والتعالى .. وماذا ينتظرنى فى القرية هناك غير الفأس التى ألقيت بها من زمن ؟ يفزعنى أن أعود إليها أعزق الأرض وأنتظر الشهور لأستنبت لبطون الأولاد حبة القمح والذرة .

استنأفت الحكم ؛ لأبقى بالخدمة تشبثاً بها كى لا أضيع ، ولا فائدة .. وها أنا الآن انتهيت .

* * *

وفى ظلمة الليل عرفان يتأمل نفسه :

قضى على الطاغية .. قادنى إلى الضياع .. كنت يده الباطشة القابضة على أعناق الأبرياء .. وكابوسه الذى يكتم الأنفاس .. ظل يتسّلط بجبروته ويجرنى معه لكل موقعة ، حتى سقط وسقطت .. مؤكد الآن أنه ، بعد أن طرد كما طردت ، قادر على أن يقف على قدميه .. أما أنا فمن أين لى القدرة ؟ عنده لم أكن غير تابع ذليل يعظم بتحية اليد تضرب جنب الأذن .. والقلب يرتعد .. فى بيته خدمت ليرضى .. اشتريت اللحم والخضر .. وحملت أزواج البط والفراخ .. ومسحت البلاط فى غيبة الخادمة الهاربة من قسوة الست ، وغسلت الأوانى والأطباق .. وكلما زحفت بالركبتين العاريتين لتطول يدى تحت السرير وأسفل الدولاب وعتمة الأركان المهملة تحت نظرة الست واعدة من الزوج بارتفاع رصيد الرضا .. وضمان مرافقته للمصيف لأنهب من فنادقه ودكاكينه عياناً جهاراً على طول الأربعة أشهر .. أنزل من عندها فأنفش ريشى وأمشى كالطاووس في شوارع المدينة .. أسلِط النظرات القاسية العدوانية على مخلوقات الله الآمنة . وعند الزوجة التى تنتظر بالتربيعة المحبوكة المائلة على الجبين ، والكحل الأسود فى العينين ، والأساور الذهبية نتاج البطش والإرهاب .. ألقى بسروال البفتة الناصع البياض مبقعاً بنثار خيشة المسح وساخات الدجاج .. وأقابل نظرتها بصفعة أسمع برعدة الفزع رنتها على صدغ المرأة هناك .. لم تُفْلِحْ فى زحزحته عن دمياط عديد الشكاوى التى لم يوقعها أصحابها خوفاً .. طاشت كلها فلم تصبه منها واحدة على طول الست سنوات .. جرفها تيار الهدايا المتلاحقة .. وما جاء مفتش تحقيقات الوزراة إلا عاد مثلما جاء بلا دليل وبلا إدانة ، ولسانه يصرخ فى حلقه : « أدينونى أنا ، فالطبخة فى أوراق التحقيقات تفوح رائحتها» . ومصيف رأس البر

كم استقبل من كبار الوزارة ليسكنهم العشش اللائقة ، وليخدمهم وأخدمهم معه . وأحمل على الكتفَ أطفالهم ، وأحرسهم على الشاطئ ، وأصحبهم ليتلقى هو فيض الثناء والرضا والوعود الأكيدة بطول البقاء فى دمياط . . والانتداب الموسمى للمصيف . . البقرة الحلوب وجنة المصايف .

* * *

عيونٌ فى أنحاء المدينة :

عرفان ظهر . . فى يده ثلث مسبحة من اليسر . . عيناه غائصتان قليلاً فى حفرتيهما الواسعتين . . رأسه منحنى بعض الشئ . . يرسم على ملامحه ظل ابتسامة حين تفاجئه نظرة متأملة . . الجلباب الصوفى لا يخلو من كرمشة عند الصدر القوى الممتلئ . . والحذاء الأجلسيه لم يعد يلمعه بغير مقابل على المقاهى التى كان يهل عليها ضيفاً آمراً فى تجواله اليومى ، يعب من مشروباتها المختلفة دون اكتفاء . . باعة السمك لم يعودوا يغطسون برؤوسهم فى «الجنب» حين يلمحونه على بُعد كالفيل . . يسأل ربه كلٌ منهم ألا يصيبه الدور الصباحى ، ليعطى قرطاس الإتاوة من الشعابين الغالية الثمن أو اللوت الكبير . . لم يشاهد يشترى شيئاً بنفسه بعد أن هوى سعره فى عين أصحاب الدكاكين إلى أصفار . . والسلة المعروفة التى تجوب بها ابنته الكبرى سوق الخضر صبحاً وعصراً ، متخمة حتى الحافة بلفائف اللحم ، بالكاد يرقد فى قعرها الآن بعض الخضر .

* * *

كرواية الأسطورجى يقول :

جاءنى عرفان مدلياً أذنيه . . ضاق به الحال وسدت النوافذ . . أملَ فى مهنة دهن الأثاث بعد يأس وتفكير أنفق فيها الأيام والليالى ، ولم

لا وبالإمكان تعلم مهنة مضمونة الكسب فى دمياط مدينة الأثاث .. نافقته بعض الشئ ، فأنسا على أية حال لم أنس بعد كيف استرد لى نقودى المسروقة فى سوق الجمعة .. وإن كان بالطبع قد نقاضى الثمن !

يتغير وجهه وتثور فى صدره الزوابع حين يرى زبوناً يعرفه يدير له ظهره ، ليتحدث معى متجاهلاً وجوده .. يلتف تماماً فى صمته الغاضب ، يقبض بشدة على زجاجة الدهان فتكاد تتفتت فى يده ، يرجها بعنف ، بنظرة متعكِّرة يتأمل السائل البنى فى جوفها .. يضم بعصبية أصابعه الخمسة على قطعة القطن المغموسة بالدهان ليجريها فى توتر حاد على الخشب .. أتصوره صاحياً منتبهاً لما يفعل .. لكنه فى الحقيقة ضائع مع تلك الأشياء القابعة فى داخله .. يلهبه إحساس الحصار ، يجرى فجأة إلى العازق المجاور ليدخن البورى دون أن يبادل أحداً هناك كلمة .. ينسرق إلى داخل الدكان منهكاً كالعائد من سفر .. عضه كلبى وهو يحاول إبعاده برفسه قاسية عندما تشمم بنطلونه الكاكى (أظنه بنطلون الخدمة الذى خلعه ليلبس جلباب المباحث) تفجرت شهوة الطغيان والأذى .. هدد وشتم الحارة بمن فيها (كلهم كلاب أولاد كلاب) وعاد إلى طبيعته الشرسة العدوانية .. سمعته زوجتى من الطابق العلوى للدكان فقذفته بالشتائم .. وعيَّرته بنهبه وسلبه فى حماية المباحث .. قالت إن الله حكم عدل .. يعطى العبد ما يستحقه ، فمن يدرى ماذا كان يمكن أن تفعل يا عرفان لو لم تطرد من الخدمة ؟!

أدلت من الشباك جسمها الضخم مهددة أياى أن أطرده تواً ، وإلا تولَّت هى هذه المهمة وأخرجته من الحارة عرياناً .

في صمت لبس عرفان جلبابه على قميص الشغل والبنطلون المشمّر ، وشد منديلة الأزرق المدسوس بين قفاه العريض وياقة القميص ، ليقيها وسخ العرق ، وسحب عصا الجميز التى دهنها لنفسه فى دكانى وذهب .

قال صبيانى إنهم يرون عرفان فى المستشفى يكشف عن بطنه القوى العضلات ليحقن تحت السرة .

علّق أحدهم بشماتة :

ـ سمعته ينبح كالكلب الذى عضه .

ـ سيصاب بالسعار !

* * *

الناس يحكون

على وجه التحديد لا ندرى ـ والدهشة عميقة ـ كيف خطرت لعرفان هذه الصنعة الجديدة فاختارها .. من أين تعلمها ومتى ؟!

تناقلنا الخبر غير مصدقين .. ترك كلٌ منا دكانه : «الجزمجى» بفوطته المطروحة على كتفه .. النجار بشبشبه الزنوبة وقلم الرصاص خلف أذنه .. جرى ليرى بعينيه .. استمر ذلك أياماً .. تساءلنا ، لماذا يفضل عرفان الإقامة بدمياط دون غيرها ؟ ألأنها أوفر أماناً ، أم لسبب آخر ؟ الفضول يتملّكنا ـ والدمياطّيون يتميزون بالمزيد من الفضول ـ كلما سمعنا أنه فى مكان ما بالمدينة يعرض مهنته العجيبة .. نشدُّ بعضنا ونسرع إلى الحلقة : تعالوا نرى عرفان «المخبر» .. هناك نتفرج عليه ، يثنى بين يديه القضيب الحديدى .. يوثقه أيهم بالحبال الغليظة فيتخلص منها بقوته العجيبة .

تحلقنا حوله متزاحمين فى سوق السمك الكبير .. مع دقات الطبول الداوية لعب لعبتين بارعتين أظهر فيهما قدرته البدنية المثيرة

.. وراح يدور داخل الحلقة يشد عضلاته ويفردها ، يثنى ذراعيه فى مستوى كتفيه .. فيبرز قوتهما وتناسقهما ويزعق كطرزان .

أشار إلى ضارب الطبل فتوقف .. نفخ عضلاته ودار حول نفسه دورتين .. تعلقت العيون بجسده القوى .. راح يقطع الدائرة الترابية الواسعة بخطوات واثقة متمهلة .. التقط حبلاً غليظاً لوح به للعيون ورفعه فوق كتفه .. توقف وسط الدائرة البشرية وصاح فى اعتداد وثقة :

ـ الآن يتقدم أقوى رجل منكم ليكتفنى بهذا الحبل .. وعلى أن أحل الكتاف .

دوت الأكف بالتصفيق .

برز معاطى العربجى من وراء ظهر عرفان منفعلاً قاسى الملامح .. استدار عرفان فوجده أمامه .. هرب لونه للحظة .. برقت فى عينيه لمحة توجس .. ناوله الحبل صامتاً .. أدلى ذراعيه إلى جانبيه .. ألصقهما بجسمه ووقف مستسلماً .. لف معاطى الحبل بقوة وإحكام حول جسد عرفان .

ـ بقوة ! بكل قوتك !

زعقها عرفان بأعلى صوته ؛ ليسمعه كل الواقفين .. التقت عيونهما بنظرتين .. هرب عرفان من عينى معاطى بعينيه .. عاد يزعق :

ـ بكل قوتك ! بكل قوتك !

تطاولت أعناق النسوان من داخل الملاءات السود خلف الواقفين ، يتطلعن مترقبات .. تسمرت عيون الصبيان على الجسد الأسطورى .. نظرة الإعجاب تطل على عرفان فى الوجوه .. هيبته للعيون ماثلة لا تزال .. مَن يدانيه فى القوة .. وأين مثله فى المدينة ؟

عـقـد مـعاطى الحبل عـقـدتين .. وتـراجع بظهـره ، فـوقف بين المتفرجين مترقباً .. تقدم عرفان من الواقفين يدور أمامهم مستعرضاً :

ـ انظروا ! أرأيتم قوة الكتاف .. لا شمشمون ولا هرقل يقدر على ما يقدر عليه عرفان ! تصفيقة ! اسمعونا الصلاة على النبى ! الآن .. سنبدأ !

نفخ عضلاته بكل قوته .. نفرت الأجزاء العارية فى ذراعيه من حلقات الحبال .. تداخل لحمه فى بعضه فبدا كأن الذراعين غابتا فى ضلوعه .. ثنى جسمه إلى الإمام وإلى الخلف .. مال يميناً ويساراً .. نام بركبتيه وساقيه على الأرض .. توقف يعيد المحاولة بقوة أكثر .. طال الوقت .. ازرق وجهه للجهد المبذول فوق الطاقة .. كادت عضلاته تتمزق .. توقف .. برق على جبينه العرق .. سكن لحظات .. اتجه بعينيه ناحية معاطى .. ارتطمت نظرته بوجهه المبتسم فى حقد وشماته .. أدرك أنه وقع فى الفخ .. عاد يحاول الإفلات من الوثاق .. لهثت أنفاسه ونضح جسده حتى ركبتيه بالعرق .. اصطبغ جلده برزقه قاتمة .. مزّق الألم جنبيه .. أدرك عبث المحاولة .. لم يفعلها معه أيهم قبل معاطى العربجى .. قيده بكل حقده وتمكن منه .. دار حول نفسه بعنف .. برقت عيناه فى شراسة .. جزّ على أسنانه بحقد وضراوة وزعق فى بحة كالفحيح :

ـ فكوا الحبل !

خرج له رجلين فحلا كتافه .

من الصمت المهزوم فى العيون رأى لحظات ضآلته .. تقلّصت ملامحه بالهوان .. ها هو يعلن عجزه .. والهزيمة صارخة .. لف كالأرجوحة الدوارة باحثاً بعينيه عن معاطى .. نثرت عيناه الخوف ..

نفثت أنفاسه الحقد .. فى اهتياج صرخ :

ـ أين هو !

تماوج الواقفون فى الجانبين .. تراجعت النسوان متعثرات فى بعضهن .. التفتْ سيقانهن داخل الملاءات المنزلقة عن اكتافهن فى اضطراب .. تفرق الصبيان مذعورين يميناً وشمالاً .. كالصرخة الجريحة ، قذف عرفان بصقة مقهوة فتناثرت رذاذا على الوجوه .

مجلة الزهور ـ ديسمبر ١٩٧٣

من أين تهب الرياح

من وراء الباب المغلق تأتينى الهمهمة كالطنين ، وليس بيننا غير جدار طينى رقيق .. ابتسمت عينا ألطاف ، وأنا أرشق الباب بنظرة ضيق .. سألت :

ـ ماذا هناك ؟

قلت غاضباً :

ـ هذة الحجرة .. ألم تجدى غيرها تسكنينها ؟!

ـ لماذا ؟

هدرت :

ـ تتجاهلين ! جوارنا ناس .. وهذا الباب الذى بين الحجرتين أيضاً ؟!

شبكت يدى التى تشير إلى الباب فى يدها :

ـ لا تعمل له حساباً .. إنه مقفل بالمسامير كما ترى .. وكل منا فى حاله ..

رددت بالخوف يحتوينى :

ـ لكنهم يسمعوننا !

هرشت جبهتى فى تعجب :

ـ كيف لم أر هذا الباب من قبل ؟!

طمأنتنى ألطاف .. بادلتها القبلات

ـ من الذى يسكن بجوارنا ؟

ـ لماذا ؟ ليس غير أرملة وابنها .

سكتت وعادت تقول :

ـ تزعجنى نظراته لا أدرى لماذا .

أنامت وجهى على صدرها وقالت :

ـ لا أعرف ماذا يبيع على عربته اليد .

دفنت أنفى فى لحمها المعطر مغمغماً :

ـ أهى العربة التى أجدها خالية فى الليل بجانب شباكك ؟

أو مأت ، وهمست فى نداء :

ـ دعك من هذا !

أبديت خوفى أن تشعر المرأة وولدها بدخولى عندها .

قالت :

ـ لا تكن طفلاً .

قلت محتجاً :

ـ لست طفلاً .. لكنك كنت تخافين رؤيتها للرجل الذى كان يأتى قبلى هنا .

أخفت حمرة وجهها .. وبادرت تزيل مخاوفى :

ـ ألست تجىء فى الليل وتخرج قبل الفجر ؟ كيف سيريانك ؟

أخذت أعانقها .

غفوت منهكاً وصحوت على شفتيها .. خيل إلىّ أن جارى يقبع على السرير بجوارى دون أن أرى وجهه !

فى ليلة تالية ارتفع صوت جارى .. وهيئ لى أنه داخل حجرتنا .. وبدا لى أنه ليس ثمة فاصل بين الحجرتين .

لكنى مع وش الموقد ونشيش اللحم فى المقلاة لم أعد أسمع صوتاً .

راقبت ، بمتعتى ، ألطاف وهى تفرغ أكياس الفاكهة فى الأطباق .. مالت علىّ فاختطفت قبلة واستدارت تشطر بالسكين قالب الزبد .

تلاقت ابتسامتى هانئة بابتسامتها .. وضعت بيدها فى فمى حبة من الفاكهة .. وأطفأت الموقد ، فأتانى صوت الجار حاداً :

ـ ساكسر رقبته !

وقفت فى حلقى حبة الفاكهة .
ردت المرأة :
- عيب .. تضرب حماك ؟!
ابتلعت حبة الفاكهة .. اختطفت ألطاف فى الهواء قبلة باسمة .
دمدم الشاب :
- يشتمنى أمام الناس ؟!
- لم تعرف كيف تتفاهم معه .
- من أين أعطيه المهر .. ثلاثون جنيهاً .. أهى لعبة ؟
- تُفْرَج .
- تفرج كيف .. أتحلمين !
تنهدت المرأة .
راحت ألطاف بهمة تقطع لى اللحم فى الطبق غامزة بعينيها فى إغواء .. وترسل لى عبر الحجرة قبلاتها .
عاد الصوت فى أذنى كالعواء :
- سآخذ منه العشرة جنيهات التى دفعتها .. وكفى .
قالت المرأة بصوت يخفى ألمها :
- ولماذا !
قال فى تهالك :
- لا فائدة .. سأترك «البيعة» لمن يدفع !
قالت المرأة فى وهن :
- لا تكن متسرعاً .
- نامى !
جثم صمت .
تداخلت ألطاف فى حضنى .

نادت المرأة :
ـ مسعود ..
ـ لا أريد كلاماً !
في عناقنا طوال الليل أحسسته يركب فوق رأسي !
قبل الفجر تسللت خارجاً من عند ألطاف فلقيته أمامي .
وقعت عيناه على حذائي في انحناءته تحت جوال ثقيل .. قبل أن أمرق من جانبه ألقى بالجوال فوق عربته ، واعتدل متطلعاً إلى وجهي .
هرولت مضطرباً ، وانفلتُ خارجاً من الحارة .
في الليل وجدته على رأس زقاق بجوار عربته ، ينقي تحت عمود النور كيزان البطاطا في حركة آلية .
عبرت مسرعاً دون أن يشعر بي .. لكنى أحسسته ينتفض فجأة ، والتفت بعينيه يحدق في جانب وجهي .
تباطأت خطواتي بالقلق .. تصاعدالخوف داخلي .
ـ ذاهب إلى الحارة .. أنت !
تشابكت عيوننا للحظة .. أرخيت عنه نظرتي لأواصل سيرى .. لا أدرى كيف وصلت يده مسرعة إلى كتفي تهزني .. أزحتها بعنف وبدني يرتجف .. اختطف من يدى الكيس الورقى يمزقه :
ـ فستان ! ياولد .. لك حق !
حاولت انتزاع القماش من يده :
ـ ما شأنك بي !
ـ كل شئ جاهز .. فلوس !
جذبت القماش أخلصه من يده .. مال بثقله على مبعداً يده بالقماش خلف ظهره ، ضاغطاً بكوعه المدبب تحت ذقني ليدفعني عنه :

ـ أتظننى سآخذه ! لا يلزم لى : يا خنزير !

هوت قطعة القماش بعنف على وجهى .

دفعت يدى إلى عنقة .. غرست أصابعى بقسوة فى لحمه .. صرخ وعيناه كجمرتين :

ـ أظافرك يا ابن الـ ..

نزلت الضربة الهائلة على رأسى .. لمحت الدم فى صنجة الميزان عندما رفعها لتنزل بضربة ثانية .

غطت صدغى نافورة من الدم .. ترنحت بين ذراعيه كاللعبة .. راحت يداه فى سرعة تلفان قطعة القماش حول جسدى وعنقى .. كأنما يكفننى .

جريدة المساء ـ اكتوبر ١٩٧١

اختناق

عيناها تحملقان من خلف زجاج السيارة .. استغرقها تضارب ولدين في مثل عمرها .. نسيت نفسها ، فازداد ضغط أنفها على الزجاج حتى انسدت فتحتاه تماماً ، فراحت تتنفس من فمها .

ليتها تستطيع الخروج من السيارة للطريق ، للناس ، للشمس .. وللمطر وللهواء .. لكنهم ذهبوا بعد أن أمروها ألا تغادر مكانها داخل السيارة ، واغلقوا عليها الأبواب والنوافذ .

عدّتْ على أصابعها الشهور من يوم أن اشتغلت بالخدمة عندهم ، وغاصت بخيالها في حلاوة الأيام القليلة التي أمضتها قبلها في اللعب مع رفيقات المدرسة ، بعد أن انتزعتها منها أمها .

زحفت من اليسار إلى اليمين .. بائع الجرائد أمامها على الرصيف يلوح بالمجلات المصورة للمارة وصوته يزعق من وقت لآخر .. لكنها لا تسمع ماذا يقول .. هفت نفسها للتفرج على تلك الصور التي تزخر بها المجلات .. هل ستظل حبيسة هكذا ؟ لم تعد تطيق البقاء على هذه الصورة .. لماذا يتركونها تختنق في هذه السيارة ؟ أول ما رأتها انزعجت لفخامة منظرها .. ترددت خوفاً ورهبة قبل أن تلمسها بيدها .. وركبتها معهم لأول مرة فغمرتها الفرحة .. وفي الليل تحسست فراشها الخشن مقارنة بينه وبين المقعد الطرى الناعم في صالون السيارة الفاخر .. انتقلت من طرف المقعد إلى الطرف الآخر .. بنت في مثل عمرها تشترى سميطة من الدكان المقابل ، تقضمها وهي تعبر الرصيف جوارها متألقة الوجه .. لوت رقبتها للخلف تتبعها بنظراتها .

الزجاج كله مغلق ، وهم حذروها أن تفتحه .. تعلقت نظراتها باللمة حول طاسة الطعمية على باب الدكان المجاور .. تشممت الرائحة الحلوة عبر الزجاج .

لا تدرى لماذا سجنوها هكذا .

الناس يتحلّقون خلف عربة اليد التى يزعق صاحبها منادياً ، فيسرع بعضهم إليه .. شبّت على ركبتها خلف الشباك ، لترى ماذا يبيع الرجل .. تأملت بلهفة لعب الأطفال المتنوعة على ظهر العربة .. وحدقت بشغف فى أرنب زاهي اللون ، التقطه أحد الأولاد وأسرع به مبتهجاً .

شيء يكتم أنفاسها والأبواب الأربعة كلها مغلقة بالمفتاح .. لا تدرى لماذا لم يأخذوها معهم عند أولئك الناس الذين ذهبوا لزيارتهم منذ وقت طويل .. وتركوها محبوسة هكذا ؟

سقط ظل فوق عجلة القيادة اللامعة .. التفتت .. ظهر جسم إنسان يغطى الباب الأمامى بلبسه الكاكى القديم .. وسمعت تكة خفيفة انفتح معها الباب وانزلق الجسم بسرعة ليستقر أمام عجلة القيادة .. تلفتت منزعجة تبحث عن صاحبها وهمت أن تصرخ .. لكن وجه الرجل استدار إليها بابتسامة جعلها تحملق ساكنة .

تحركت السيارة .. فتحركتْ معها فى قلق .

بدا لها الأمر غريباً أن يجيء رجل ليجلس فى مكان القيادة غير سيدها .. اكتشفت فى لحظة أنها لم تستطيع من قبل تخيل هذا الشيء .. دارت السيارة مسرعة فى أحد المنحيات ، واحتكت عجلاتها بالأرض .. مالت إلى الأمام بفضول ودهشة .. التقت عيناها فى المرآة العاكسة بعينى الرجل ، فتراجعت .. أدركت فى ذهول أن الرجل يسرق

السيارة، لكنها لا تشعر نحوه - لا تدرى - بشعور عدائي .. نسيت ذهولها واكتفت أن تظل حائرة .. ووجدت فى الحيرة مانعاً لأية حركة تفكر فى إتيانها .

- افتحى الزجاج للهواء .

ارتجفت حين سمعت صوت الرجل .. ظلت جامدة لا تتحرك .. نظرت إلى ابتسامته فى المرآة .. استغربت اطمئنانه لها .. مد يده فأدار مقبض الزجاج .. أنعشها الهواء .. يجب أن تستمر السيارة فى السير دون توقف .. زحزحت نفسها للخلف . وغاصت فى المقعد الطرى .. نظرت إلى الطريق .. والدكاكين والناس .. أحسست براحة عميقة .

استنشقت الهواء برئتيها .. شربته بفمها .

تركت جسدها يتراخى بكل أعضائه .

شعرت بخدر لذيذ يدعوها للنعاس .

قاومت لحظات .. ثم استسلمت للنوم مطمئنة الملامح .

جريدة المساء - يونيو ١٩٦٨

البديل

ترك وراءه شمس الطريق ومياه الأمطار التي سقطت في الليل ، ونسيها بعد غفوة الفجر القصيرة ، واستقبله الدهليز المعتم الرطب يشق الطريق وسط المتزاحمين في وقفة انتظار .

شئ ما يسوقه إلى المكان .. وكان يظن أنه الوحيد الذى يسبق الآخرين إليه مبكراً .

تعلقت عيناه بباب قاعة الجلسة المغلق .. وهيئ له للحظة أن الرجل يقف خلفه فى انتظاره .. واحتوته رعدة .. جئت لأراك يا تهامى فى قفص الاتهام .. فقط أراك .. لكن لماذا ؟

قلب الليل وظلام العطفة القريبة من الفندق .. صدره ينتفض بجلده وعظمه .. رأسه تدور .. لم أتصور للحظة طوال أربع سنوات عملتها معى تفعل ليلتها ما فعلت .. يدك الهزيلة ترتفع بالسكين فى حقد وحشى لتغرسها فى رقبة غانم .. وعندها لابد أن تندفع نافورة من دم حملت بعضه على كم جلبابك الرصاصى ، وعدت مسرعاً بدراجتك التى كانت ملقاة عند قدميك .. آه .. يالفظاعة ما حدث .

الناس يأخذون أماكنهم على المقاعد المستطيلة فى قاعة الجلسة .. وهو ينقل خطواته البطيئة فى الممر الضيق لا يدرى أين يجلس .. خيل إلى أنه لم يعد ثمة مكان له .. وجد نفسه يرتمى على حافة مقعد ناحية الممر الذى لا تهدأ فيه حركة رجال الشرطة والمحامين وكتبتهم .. قلبه يترقب قضاء الرجل .. الحياة أو الموت .

القفص الحديدى خال لم تدخله بعد ياتهامى .. عندما دخلت خلفك الفندق ليلتها مرتعداً متخاذل الساقين فوجئت ، كأنما كنت أتوقع أنى ما عدت سأراك .. كنت منحنياً على الدراجة بالفانلة المليئة

بالشقوب فى برد الليل تنظف بلهوجة مقودها بالفوطة الصفراء .. انتبهت إلى وقفتى جامداً قرب الباب .. فبدرت منك حركة خفيفة لكنها عنيفة الإحساس ، أمالت بك إلى الجدار الرخامى .. عيناك الضيقتان بدتا كخرزتين حمراوتين تحدقان فى قائلة «رأيتنى ؟!» ، وتذهل ، فتشرد محملقة فى الخارج مذعورة بينما بدا شعرك الثقيل الأكرت كأنما يرتعد ..

كنت أريد ـ لماذا ؟ ـ أن أسمعك .. هناك شئ مروع خلفته وراءك من دقائق معدودة .. فجأة سمعت خلفى حفيف ثوب نسوى حريرى ـ فى هذا البرد ؟ ـ فالتفت .. التقت عين المرأة بعينى وانحنت كالبرق لتضع كوب الشاى الساخن على البلاط فى جوار الباب ، واعتدلت .. ألقت نحوك نظرة فاترة بأثر النعاس وانفلتت خارجة .. كيف أيقظت زوجتك من حجرة البيت المجاور فى هذه الساعة من أجل كوب الشاى ، بعد أن تركت العشيق هناك ملقى على وجهه ، ينزف دماء الحياة ! العشيق !؟ كلا .. فما كان هو ياتعس .

«القضية رقم ٣ ـ المتهم تهامى إبراهيم سالم» .. وقفت داخل القفص فى بطء .. واتجهت نظرتك إلى المنصة ، لتستقر ثوان على الوجوه التى وراءها ، ثم رمشت عيناك وانخفضت نظرتهما تحدّق من فرجة القضبان .. وتعلقت فجأة بى . أبيض جلد وجهك كأنما سُحبَتْ دماؤك دفعة واحدة .. أنا وحدى الذى تخاف .. شاهد الجريمة أنا .. والسكين التى أخفيتها فى كومة الرمل خلف جدار الفندق .. وكُم الجلباب الذى غسلت عنه الدم ، وأدليته من شباك الحمام لندى الفجر وشمس الضحى .. لمسته بيدى التى ارتعدت لملامسته .. ليس غيرى يقدر على إدانتك بكلمة واحدة .. لكن لا تخف .. لا تضطرب ؛

فالقاتل أنا وإن كنت أنت منفذ الجريمة .. والقتيل أيضاً كان يجب أن أكونه .. أجل ياتعس .

قلبه يدق بعنف وهو يختلس إلى الواقف فى القفص نظراته .. خيل إليه أن قامته تستطيل ، ويرتفع جسمه إلى أعلى ، حتى يلامس السقف، ويتدلى وجهه فوق رأسه يحدق بعينيه فى وجهه ، ويطلق أنفاساً يلفحه لهيبها .. قبل أن تختطف دراجتك وتخرج من الفندق خلف غانم كنتما تتكلمان فى الصالة بصوت خافت يأتينى فى حجرة المكتب همساً حاداً ، وهمهمة مزمجرة .. قمت بفضول خفى ؛ لأسمع ماذا يدور بينكما .. ألأنى أخاف بين لحظة وأخرى افتضاح أمرى ؟ وقفت على عتبة المكتب أرقبكما . لمحنى غانم من وراء جسمك الذى يحجبه عنى ، فجذب ساقيه الطويلتين الممدودتين أمامه .. أخرج يديه من جيبى بنطلونه .. ووقف .. التفت خلفك بعصبية .. كان وجهك أزرقاً يرتجف .. وعيناك تطل منهما نظرة مرتعشة .. تحرك غانم فى بطء، وصعد درجتين من السلم ، وعاد فنزل ، بينما تراجعت إلى مكتبى ، رأيته من خلف الحاجز الزجاجى يكبس البريه على رأسه ، ويفتح الباب الخارجى ، ويختفى .. سألت من مكانى إن كان غانم أنجز عمله فسمعت بالإيجاب همهمتك .

«هناك جريمة لا ينكر وقوعها .. لكن من مرتكبها ؟ هناك قتيل .. لكن من هو القاتل» ؟

تهتز يا تهامى فى قفصك .. ويومض فى عينيك شئ .. تتحول هاتان العينان نحوى .. فى جوف الظلام سمعتك تعوى فى زئير :

ـ غانم .

توقفت بعيداً متدهور الأنفاس ، أعجب كيف لحقت بك .. لماذا

خرجت لأسرع خلفك ، عندما انطلقت تركض بدراجتك وراء غانم ؟!
لمحت شبحه يتوقف ملتفتاً من فوق كتفه .. وأظنه ارتعد لصيحتك بل لصرختك :

- انتظر !

همَّ بالتحرك ، لكنه عاد فجمد في مكانه .. يقيناً كان يدرك أن شراً سيلحق به .. والغريب أنه وقف ساكناً ينتظر .

«لا تهدروا دم هذا البرئ - تمتد الأصبع المشدودة بحركة تمثيلية بارعة مشيراً نحو المتهم - لمجرد أنه زميل العمل للقتيل .. وأنه كما تزعم التحريات كان يحقد عليه لعلاقة آثمة بينه وبين زوجته ..» .

أحملق في عينيك يا تهامي .. ألمح السكين مشروعة في أحداها .. أما الأخرى فأراني منتصباً داخل حدقتها شامخاً منفرج الساقين ، أضع يدى في خاصرتي ، بزهو واعتداد .. يا تعس أنت لا تدرى من الذى كان يجب أن يتلقى منك الطعنة القاتلة .. اشتهيت أن أنال هذه التي تبدو لعينى غجرية وحشية الغريزة ، فلماذا كان الآخر هو القتيل البديل ؟!

« .. فهل يمكن لنا أن ندين بجريمة القتل هذا الرجل الماثل أمامكم بغير الدليل المادى ، أو الاعتراف ، وهو سيد الأدلة ، أو بشاهد عيان يتقدم هنا أمامكم ؟» .

كل شئ حوله يتلاشى ، حتى هو نفسه يصبح بلا جسد لكنه معلق فى قبضة يده ذاته .. الناس لا يحتاجون إلى مزيد من اللحم ، فالسوق يحفل به .. والقصابون أكثر بسواطيرهم المشروعة .. قبضة يده تضغط جسده ، كأنما تجمع فيها كله ، بقوة جبارة لا يحس بانصهار ، ولا باختناق .. كيف ؟

- هل ستعطينى الفلوس أم أعطيك بهذا فى وجهك !

كانت تحمل موقداً لإصلاحه .. زوجها أمامها ساكن ، لكنه يرشقها بنظرة مسنونة .. عيناها تبرقان .. وجهها يشتعل بحمرة دموية .. تملكتنى الرغبة أن أضربها على رأسها بحذائى .. لكنها كانت الأيام الأخيرة للمطاردة المحمومة .. والوقت الذى سأظفر بها فيه يقترب .. فجأة ابتسمت عيناها وانفلتت ذاهبة .. خلفى كان غانم يتحرك .. انحنى يلتقط شيئاً ما عند ما التفت فلم ألمح وجهه .. سمعتك تحلم يوماً باتهامى وأنت راقد على سريرك ساعة الظهر .. تسللت بذات الفضول الخفى إلى الحجرة الضيقة التى تضمك أنت وغانم ، كان هو فوق ، ما زال ينظف حجرات الفندق .. وأنت .. لماذا تنام هنا بعيداً عن بيتك الملاصق : « أعرف ما يجرى بينك وبينها » .. يا غانم الكلب .. هى لا تضحك إلا إذا رأتك تضحك .. لا تحس بفرحة إلا إذا كنت قريباً منها .. لا تلين لرغبتى فى شئ إلا إذا كنت تقف جنبى مبتسماً لها .. راضياً .. لا تظهر شيئاً من احترامها لى إلا بكلمة رقيقة منك ، حتى لو قلتها للهواء ، أو نظرة مختلسة تتبادلها معك .. لماذا يحدث هذا ؟ ماذا فيك وماذا بى ؟ أنا لا أعرف .. لكنى أعرف ماذا بينك وبينها .. أعرف يا نذل» .

تراجعت فى سكون ، فاصطدم ظهرى بالنقاش العجوز ذو الوجه المجدور .. حملقت فيه بدهشة من يرى مخلوقاً غريباً .. أما هو فمضى يواصل مطاردة الذباب بالمبيد ـ ما شأنه هو ـ فيتساقط مرتعداً عن باب الفندق الذى جذبه إليه دفء الشمس .

لكزه كوع جاره .. لماذا انغرز الكوع فى جنبه !

التفت إلى جانبه فى بطء .. كان الجار يضم ذراعيه على صدره بلا حركة .. من أين جاءت اللكزة !

انتفض لصوت يعلن برآءة المتهم .. التفت بحدة إلى القفص فقابلته عينان مبتسمتان .. وصدر يرتفع وينخفض .. ونظرة دافئة بالشكر مفعمة بالامتنان .. هل يجرؤ إنسان أن يُسمعك آية قرآن خلال أغنية مبتذلة .

* * *

قرب الفندق لقيه واقفاً .. لم يمد إليه يده .. لكنه اندفع نحوه فأمسك بها ، وأهوى عليها بفمه .. أهون على أن تغمد فى قلبى سكينك المخبأ يا تهامى .. أنت لا ترى أنها اليد التى أمسكت من أول ليلة بامرأتك فلم تفلتها .. لماذا تظهر ثياب الرجال أقل قذارة من ثياب النساء ، مع أنها أقرب منها إلى وحل الطريق ؟

بارك الجار للرجل بكلمات خافتة لا تكاد تسمع .

قال جار آخر :

ـ هربت زوجتك عند ما سمعت حكم البراءة ..

نقل بصره بين الجارين فى نظرة غائمة .

ـ وتركت الطفلين .

رفع رأسه .. وحدق نحو باب الفندق الزجاجى .. مال بكتفه مستنداً إلى الحائط .. يا ويلى من نفسى يا تهامى .. يا ويلى من بؤسك يا تهامى .. كيف أهرب أنا الآخر كزوجتك .. ليتنى أقدر .. ليتنى أعود طفلاً .. طفلاً بلا أم .

تراجع فلم يدخل الفندق .. عبر الشارع ، لا يدرى إلى أين .

عند العطفة المظلمة توقفت قدماه .. حدق فى ظلامها .. ارتعد فاستدار عائداً .. لا أمل فى اجتياز هذا الطريق ، إلا حينما يزول الليل .

عاد إلى الفندق .. كان الآخر هناك ، تحت السلم ، متقرفصاً فى

سرير نوبته .. منكفئاً ، يدفن وجهه بين ركبتيه الملصقتين بصدره .. لا تبدو منه حركة ، كأنما استحال إلى كومة من الخرق .. والى جواره طفليه يغالبان النوم .

انتحبت أعماقه ، وأسرع إلى مكتبه ، ليلقى بنفسه على مقعده .. أحس كأن السكين في ظهر المقعد يخترق نصلها قلبه .. والدم ينزف .. ود أن يصرخ من الألم .. لكنه خاف أن يسمعه .

جريدة المساء - مايو ١٩٧٢

ذراع تحت الرأس

كان الوقت ضيقاً .. كنت أتململ فوق مقعد الحلاق ، لينتهى من إبدال الفوطة الصغيرة بأخرى أكبر حجماً .. فى بطء كان يحاول فتح أحد الأدراج .. وعندما استقرت فى يده الفوطة البيضاء المشوبة بصفرة بدأ ينفض عنها الشعيرات اللاصقة بها .

كانت نظرة عينيه تحيطنى بحفاوة بالغة .

قبلاً كان قد أمسك بفرشاة الذقن يديرها فى المصبنة ، وكتفه تهتز فى ارتعاشة .. للتو قلت له أنى سأحلق شعر رأسى ، أما الذقن ففى البيت حلقتها بيدى ، لكنه بدا كأن لم يسمع .. وظلت حفاوة نظرته .

كان كم معطفة ممزقاً عند كوعه الذى يبرز من خلال المزق عارياً .

فجأة نظر بجانب عينه فى وجهى بابتسامة عجوز ، أومأ معتذراً بحركة أوروبية متكلفة ، بعد أن نزع الفوطة الصغيرة من حول عنقى .

كان الدكان قديماً معتماً ، تنخفض أرضيته الرطبة عن طوار الشارع المزدحم .. خالياً وحده بين دكاكين الحلاقة الأخرى .. فدخلته مؤملاً أن يسعفنى لألحق موعد القطار .

فى صمت تناول الرجل المقص وفتح طرفيه فى يده مرات .. التقط المشط ونفخ فيه نفختين .. وقف خلفى وضرب بالمقص مرات فى الهواء :

ـ مسافر حضرتك .. على ما يبدو ؟

كانت حقيبتى بالقرب من قدميه .

غمغمت مجيباً .

-الاسكندرية طبعاً .. نحن فى الصيف !

كان يجاملنى ، فما كان ينم عن ذلك مظهرى .

قلت :

-المنصورة .

انبعث أسفل قفاى قعقعة عربة قديمة والرجل يجر مسند المقعد المتهالك ليخفضه خلف ظهرى .

-مدينة خفيفة الظل !

ثم بعد لحظة :

-زرتها فى شبابى .. من أهلها حضرتك ؟ شارع البحر هناك جميل !

انفرج فمه عن أسنان خضراء مبتسماً :

-أيامها كنت أحب جارتنا ليلة خطبتها لأحدهم .. تركت الحارة هارباً من يأسى !

كان صوته متهافتاً مرتعشاً .

قرب أرجل المقعد كانت مبصقة قديمة تقشر طلاؤها وانتشرت على وجهها بقع الصدأ ..

-ركبت القطار الذى صادفته فى المحطة ! كان بعضهم يتكلم عن المنصورة .. نزلت من عينى الدموع عندما تحرك القطار .. جاء الكمسارى فطلبت منه تذكرة للمنصورة ... !

معذرة هل أضايقك بكلامى ؟

كانت الماكينة ترتعش فى يده .. تكاد لا تصل إلى شعر قفاى .. كنت أحس بضيق يمتزج بالإشفاق .. دار إلى جانبى وانحنى برأسه

قرب وجههى :
- تريدها تدريجة «بومبيه» ؟
- ماذا ؟
- فرنساوى .. أعنى ؟
- كما تريد !
كانت زجاجات الكولونيا الفارغة مرصوصة أمامى فوق سطح الأدراج المستطيل .. الورقة الملصقة عليها سوداء تحمل قدم السنوات ..
جرت يد الرجل اليابسة فى رأسى بالمشط الذى اصفر لونه .. حدق فى شعرى متسائلاً :
- تصبغه بيدك ؟ جميل ! كأنه لون طبيعى .. ما اسم هذه الصبغة ؟
ذكرت اسمها فهز رأسه راضياً :
- سأستعملها لزبائنى !
كبحت ابتسامة آسية .
رفع المقص من على قرص رأسى وأشار بطرفه إلى صورة ممثلة داخل إطار قديم معلق أعلى المرآة :
- تعرفها بالطبع .. كانت تدعونى إلى بيتها لأحلق لأولادها الثلاثة .. كانت تعيش وحدها بعد أن هجرها زوجها .
هز رأسه وتنهد :
- كانت تشترى لى رطلين من الكباب .. آخذها معى لأولادى .. وكانت تعطينى جنيهاً كاملاً .
عاد يتنهد .
- جنيهاً فى تلك الأيام !
كانت جرة المشط وسط رأسى تقطع فى عناء مسافة طويلة كسفرة

من مقدمة الشعر حتى تصل إلى نهايته .

ـ كانت أجمل ممثلة .. أهدتنى صورتها .. كنت أضعها فى البيت .. وجئت بها إلى الدكان ؛ عندما تركت لابنتى الشقة لتتزوج .

كانت عيناه تشعشعان بابتسامة عميقة كسنواته .

ـ هل كانت تحبك ؟

حملق بدهشة :

ـ تحبنى ؟

انفجر يضحك .. اهتزت عظمتا كتفيه .. أحسسته سيتهاوى من خلفى بوهنه .

عدت أداعبه :

ـ ولم لا ؟ ليس فى الأمر غرابة !

ـ أنا ؟! تحبنى ؟!

عاد يضحك بشدة .. تغرغرت عيناه بالدموع التى انحدرت على وجنتيه المتغضنتين .. قبضت يداه على كتفى ليمنع نفسه من السقوط .

بعد لحظة هز رأسه كأنما بدا له خاطر .. قال بصوت منخفض .

ـ كنت وسيماً فى شبابى صحيح .. لكن مهنتى متواضعة ..

قرب قدميه على البلاط القاتم كان يرقد موقد كحولى علاه الاخضرار ، بجانبه كوب فارغه فى قاعها تفل شاى جاف .. على حافة الكوب كانت تدور نملة تصعد وتهبط بغير تعب .

ـ تعيش الآن وحيداً ؟

سكنت يداه عن الحركة فوق رأسى .. نظرت عيناه فى المرآة إلى وجهى مستغرباً .. كأنما اكتشفت لغزاً .

عادت حركة يديه مع هزة رأسه :

ـ أين أجد من يعيش معى بعد أن ذهب الكل .

شيئاً فشيئاً فارقنى الإحساس بوجودى كزبون بين يدى حلاق .. بدأ الأمر يختلف .. بالتدريج كان يتفاعل داخلى شعور بالود والتعاطف .. كنت أكاد أقطع بأن ثمة إنسان غيرى لم تطأ قدمه الدكان لسنوات .. أحسستنى أقترب من الرجل .. كنت أنظر فى المرآة فتطالعنى منه نظرة ود بمثل نظرتى التى تقابلنى .. كان سعيداً بوجودى .

ـ عندما تنهكنى الوحدة .. أقفل الدكان وأروح إلى ابنتى ساعة .. وأعود إلى حجرتى .

فى المرآة ظلت عينى عالقة بكتف معطفة وجانب وجهه ، تلتف حولى وحدته المضنية .. وعلى مقعد من القش القديم فى ركن الدكان كانت لقمة تبقت من رغيف أسمر فوق ورقة مبقعة بالزيت ، وفى جوارها قرص من الطعمية ، قضمته أسنان ، كهلال صغير ، وعود بصل أخضر .

ثقلت يد الرجل على مؤخرة رأسى .. استند بصدره على كتفى .. فى المرآة رأيته يترنح خلفى شاحب اللون .. وتستند يداه على كتفى ثقيلتين .. يزداد ثقلهما .. تحولت إليه منزعجاً .

نظر إلى عينى .. هز رأسه .. تمتم :

ـ لا شئ .. لا شئ .

انزلقت يداه .. تراخت بجانبه .. نظر معتذراً :

ـ سأستريح قليلاً .. لو سمحت لى .

دار من خلفى واستند على درج المرآة .. نهضت مشفقاً :

ـ أية مساعدة ؟

انزلق فى تهالك على المقعد المجاور .. أسند رأسه إلى الحائط ..

عدت أسأله ماذا يمكن أن أقدم له .. بهمس قال :

ـ ضع ذراعك .. خلف رأسي .. من فضلك !

على ذراعي حرك رأسه في وهن :

ـ شكراً لك ..

كانت عيناه ما تزال مخضلة بدموع الضحك ..

فتح فمه وملأه بالهواء .. شحب وجهه أكثر .. ارتفع سواد عينيه إلى وجهي ملتمعاً بنظرة مودة وامتنان .

مالت رأسه على كتفي .. سقط المشط من يده .. تدلت ذراعاه إلى جانبيه .. بقي المقص معلقاً في أصابعه الساكنة .

في جواره كانت نملة الكوب على حافته تدور في حركة دائبة .. دون توقف .

مجلة الهلال ـ سبتمبر ١٩٧٩

الحاجز

من مياهها تخلو المحيطات .. من المغرب تشرق الشمس .. تقوم الساعة بعد لحظة .. ممكن هذا كله ومحتمل .. غير الممكن أن تأتى إلى حجرته مارى ..

راقد هو على السرير الحديدى الصدئ ، بساق يلفها الجبس ، ولا شئ غير الفراغ والظلام .. وعفن الأرضية الرطبة التى تعرت بعض أجزائها من الألواح الخشبية المتآكلة .

من العمارة الشاهقة المجاورة ، نزلت إلى البيت المتداعى ، لتراه فى حجرته هذه :

ـ أوحشتنى .. محمود .. أوحشتنى .

ـ مارى .. أنت هنا حقيقة .. كيف !

ـ ومن غيرى يكلمك الآن .

كلا .. لا يصدق .

فى دهشة لم يسمع سؤالها عن أمه ، لماذا لا تراها من زمن ؟

فى الطريق كانت تقابلها دائماً ، فأين هى ؟

وعى سؤالها وهى ترددة ثانية .

لا كلمات مناسبة يجدها ليجيب .. ليس سهلاً أن يخبرها فماذا يقول .. من الجوع هربت لمن يطعمها الرغيف .. نجت بنفسها من بؤس يبدو بلا نهاية .. لكنى أنكر عنك يا مارى .. هذه الأشياء أخفيها فلا يلزم أن تقال .

فى هسيس أنفاسها أدرك ما يشبه فهم شئ .

فى إشفاق سألت :

ـ ألا تأتى لزيارتك ؟

اغتصب الكلمة :

- ربما ..

بعد لحظة صمت قالت :

- لن أدعك وحدك كثيراً .. سأحضر كلما استطعت .. دائماً .

في همس قال :

- أخاف أن يروك .

- أعرف كيف أجئ دون أن يرانى أحد .

ثم بأسف :

- لكن هذا لن يستمر لأكثر من أسبوعين .

- لماذا ؟

- مسافرة .

قبل أن يسألها إلى أين قالت :

- المهم أنك أوحشتنى .

همس ليقول شيئاً :

- مارى ..

ردت فى خفوت :

- نعم يا محمود ؟

احتضنته بعينيها :

- ماذا تريد أن تقول .

- لا شئ .

احتوته بصدرها .. احتضن جبينه عنقها .. حجبت عنه ظلام الحجرة .. قبّل صليبها الذهبى النائم عند شفتيه .. من خلال وجودها أحس بوجوده .. ليس وهماً ما يظن .. حقيقة هذه اللحظة .. هى معه

فى الحجرة ، التى يأنف دخولها آدمى .. من فترة لم يلتقيا فوق «الكوبرى العالى» فى عتمة الغروب .. ولم يرها فى أصبحة الآحاد وهى عائدة من الكنيسة .. خاصم لأجلها «الكوبرى السفلى» ، كما تسميه المنصورة .. وصار يطلع الكوبرى الذى يعلو خطوط القطارات فى محطتها .. الآن يحبه لأنه يلقاها على أرضه الخشبية القديمة ، ويحلو معها لعينيه منظر القطارات الداخلة والخارجة .

-ألا تقوم لتجلس جنبى .

يمكن أن يقوم .. لكنه لا يود أن ترى قميصه المقطوع ولا بنطلونه المهترئ .. ببساطة لا أمتلك ملابساً للنوم يا مارى فدعينى تحت الغطاء متوارياً عن عينيك .

من شباك ضيق يطل على السلم الخشبى ينسل خيط من الضوء .. تهمس بصوتها الملائكى :

-محمود ..

وهى تنحنى بوجهها عليه رف على صدره صليبها الذهبى فعاد يقبله .

وهى تخرج كالطيف راح يرقبها من بين قضبان السرير ، تنقل قدميها بحذائها الأبيض الأنيق على الألواح الخشبية المخلوعة .. خائفاً أن يصيبها أذى .

عبرت الحجرة حتى الباب فأحس بنفسه يعبر وراءها إلى الضوء .. وود لو يخترق حاجز الزمن ليعرف ماذا ينتظره .

بعد لحظات من الصمت هيئ له أن ما حدث كان حلماً .. وهماً .. وخيالاً .. أى شئ إلا أن يكون حقيقة .

مستحيل أن يصدق أبداً .

جريدة المساء - نوفمبر ١٩٧٩ .

سند

دون أن يناديني الصبي ، كالعادة ، عبرت الطريق المؤدى إلى البيت .. قفصه الجريدى المرتفع ، غير منصوب في مدخل الشارع ، تتكوم على سطحه ثمار الجوافة المعطوبة ، التي تسقط في الليل من شجيراتها ، فيجمعها بيديه الطريتين في الفجر ، من حدائق القرية المجاورة ، بقروش لا تزيد قليلاً عن أصابع يده الصغيرة .

في الضحى يعود دائماً ، ليبيع للنجارين وصانعي الأحذية في الحي ، بالقرش ونصف القرش .

نداؤه يرتفع إلى شباكنا مترنماً : « تأخذ حلالك يا صاحبي .. لا أكيل بكيلين ولا أزن بميزانين » .

تنفجر شتائم جاره القفاص ، ضائقاً بصراخه ، فيجرجر قفصه مبتعداً خطوات ، ثم يعود إلى وقفته ، بعد أن يهدأ الرجل في عشته البردية ، ولا يعود يلتفت إليه ، فيرتفع صياحه من جديد .

* * *

في البداية كان ما يجرى أمام عيني ، غير مفهوم : صيحات الرجل الثائر ، تهوى معها ضربات العود الخشبي على ضلوع الصبي ، وتتداخل في صرخات الألم ، والخوف ، والتوسل .

ـ لا أحد يمنعني .. وإلا أنزلت الضربات على رأس الولد ..

وزأر الرجل صارخاً ، عندما التقطت ذراعه المرفوعة ، بالعود الخشبي ، فأوقفت الحركة العنيفة :

ـ لا تدخل نفسك .. أنت لا شأن لك بهذا .. قلت لك لا .

هدرت غير عابئ بتهديده :

ـ دع الولد .. ستقتله .

- قتله لا يكفى .
- هذا توحش .
- سرقنى .. كل يوم لا أجد قفص البطاطس فى الدكان .. أدخل الزاوية لأصلى ، فيدخل هنا ويسرقنى ابن الـ ..

هوت على وجه سند كفه العنكبوتية الأصابع

هل ستبيع البطاطس بدلاً من ..

- كفى .

صرخت مرتعداً بالغضب .

- قلت لك ابتعد .
- سأدعو لك الشرطة .. لسنا فى غابة .
- أنا الذى سأدعو الشرطة لهذا اللص .

ضربت يده القابضة على قميص الصبى الممزق ، فانفلت غائصاً وسط اللمة ، وجرى تجاه البيت ، ولحت أخته الصغيرة تجرى وراءه ، وعويلها المقهور يتطاير خلفها .

* * *

قبل أن أدخل البيت لمحت الصبى قادماً ، عند مدخل الحارة ، وسط أمه وأختيه .

هتف سند باسمى منادياً لأتوقف .. تقدّم منى بلهفة ، ووقف أمامى بوجه كليمونة .. انتظر حتى وقفت أمه وأختيه حوله ، وسأل مخنوقاً :

- هل أنا سرقت ؟

صرخ فى عينيه التوسل ، وانتظر .

تعلقت بشفتى نظرة أمه ، يتواتر فيها الخوف واللهفة والقلق .. وجه أخته الكبيرة معتماً ، تتلاطم فى ملامحه أشياء ملأت صدرى رائحتها .. فى عينىْ البنت الصغيرة المتورمتين بالبكاء ، تصلّبت ظلمة

اليأس وقتامة الانكسار .

تحيّرت فى انتقاء الكلمات .

هو فى عينهن الرجل .. هو البطل فكيف يسقط ؟

لا يهم أن يتصاعد صوته بعد العشاء ، فى بحة يخلفها صياح النهار ، منادياً أمه مرة ، وأخته الصغيرة مرات .. تحت جدارنا يقف فى مدخل الحارة ، نداؤه الزاعق يمتد مرتعداً بالقلق والخوف عندما يطول الوقت .. تطل من السطح الخلفى القريب لمبة الغاز ، فيجتاز سند المسافة القصيرة مسرعاً فى ظلام الحارة . ويختفى ضوء اللمبة ليستقبله فى مدخل البيت الواطئ ، حتى يطلع إلى عشتهم البوصية فوق السطح الخالى .

كنت أنجذب إلى نقطة تتخلّق هناك وسط الظلام : أكنت أنا الذى ادخره الصبى لهذه اللحظة ؟

صوته الرفيع يستوقفنى عند قفصه ، وتشدنى غمزة عينه الرمادية :

- ألا تريد أن تكون من زبائنى ! بضاعة الناس الذين على قد حالهم .

يستفز مشاعرى .. يقودنى الخجل .. أعطيه الخمسة قروش ، فيرد لى ثلاثة ، غامزاً كفى بأصابعه العظمية ، ليعد القروش :

- الله واحد .. ليس له ثان ..

يسقط القرطاس الممتلئ فى يدى :

- جوافة كالعسل .. ستعجب العيال !

لايهم إن كانت زوجتى ترمى ببضاعة الصبى فى عشة الدجاج ، ليتزاحم عليها بمناقيره ، دون أن ياكها ، فثمة أرغفة يقدمها الصبى آخر النهار لأختيه وأمه .

ثبتُّ عينى على وجهه الشاحب ألطم انهزامه :

ـ الرجل لا يسرق .

جرت الدماء فى وجهه وردية رقيقة .. برقت نظرة امتنان فى عينيه .. مدت أمه باطن كفها .. فمسحت جرح صدغه ، الذى يشلب دماً ، جفّ نزفه عن ساعة سبقت .

غرق الصبى فى قاع اللحظة .. ناديته فلم يسمعنى .. احتضنت كتفيه : أحسستنى أقوده ناحية الضوء الذى ينتشر هناك .

مجلة الزهور ـ أغسطس ١٩٧٥

القاع

قالوا إنه الآن ملك فى قصره .

ملك ، وقصر ؟ كيف هذا ؟! كيف يمكن أن يكون ؟! واحد منهم يغرينى أن أذهب إليه هناك ، لأذكره بنفسى .. أذكره ؟! كيف تقولها يا رجل .. أهو نسينى .. ولدى ! محمد ! أنت لا تعرفه إذن .

هى سنوات حقاً لا أذكر عددها غابها عنى .. لم يأت إلى المنصورة منذ غادرها لآخر مرة ، منقولاً إلى ديوان الوزارة بالعاصمة .

جاءنى منه خطابان هما عندى كألفين .. قالوا إنه لا يعرف كيف يحقق لنفسه الحياة التى يريدها . وأنه يرى غيره يصعد السلم بسرعة تثيره وتستفزه .. وعرض علىّ ، إن شئت ، أن أترك المنصورة أنا وأمه ، لنقيم هناك فى القاهرة معه .

رددت عليه أقول إن أمه لا تقدر على الحركة منذ أصابتها العلة ، وقصرت إمكانياتنا عن مداواتها .. فإنها تقضى ، وليس غير ، القليل من الأيام ثم تغادر .

وأبرقت إليه يوم ماتت .

الآن أذكر بعد أن انصرف المعزُّون وتركونى وحدى .. لا حركة حولى لكائن فى الشقة القديمة العارية ، غير صرصار ترك أخوته عند البالوعة المسدودة ، التى لا تقوى يدى الضعيفة على تسليكها ، ليتسلق أمام عينى الجدار المشروخ .

أبرقت لمحمد يومها ليحضر دفن أمه .. جاءنى منه بعد أيام خطاب يقول إنه مشغول بالحصول على وظيفته الجديدة ، وأنه يخشى أن يتغيب فى أجازة فيتلقف غيره الفرصة ، التى ظل يرقبها من زمن .

لا بأس يا ولدى .. فماذا يفيد مجيئك بعد موتها .. وماذا ستأخذ

أنت أو هي بالمشي في جنازتها .. والوقوف هناك ساعة دفنها ..

لا يهمك استنكار الجيران والأقارب ، فكلٌ يرى الموقف من وجهة نظره هو .. تُرى ماذا فعلت بك الحياة وماذا فعلت بها ؟ ثمة صورة لحياتك هناك صنعها خيالي ، لكني لا أعرف كيف أحدد أوصافها وملامحها .. أترى هذه المسافة بين المنصورة والقاهرة - بيني وبينك ؟ أتراها قصيرة جداً ؟ هي كذلك حقاً يا ولدي ، لكنها أطول من أن يطويها أبوك العجوز .. فضلاً عن أني لا أملك بذلة لائقة أجئ بها إليك .

والليلة يضغط السكون روحي ، ويهيم فكري ، ويتكاثف من حولي الظلام ، فأتكاسل عن إيقاد اللمبة الصفيح المعلقة بالجدار الأجرب تاركاً نفسي تحلم بالفجر حين يطلع ، لأغلق الشقة الصغيرة التي عشت فيها كل عمري ، وعاشت أمك معي ثلثي هذا العمر ، وسعيت أنت طفلاً بين أقدامنا على أرضها .. سأغلقها على الفئران والصراصير تمرح فيها ، كما تشتهي ، لأركب إليك قطار الصباح .

* * *

ما هذا يا ولدي ؟!

أين أنا ؟!

ما هذه «الفيلا» ذات الطابقين .. وكل هذه الحجرات والردهات .. والجدران اللامعة المزينة بالصور واللوحات ، والتحف الثمينة المتناثرة هنا وهناك .. رأسي تدور يا ولدي .. ما أراه حولي يصيبني بدوخة لم أعرفها في حياتي .. يعميني ولا أدري لماذا . معذرة يا محمد .. فما كانت حياتي بكل سنينها الطوال إلا هناك في تلك الشقة التي عرفها صباك وشبابك .

ماذا أرى يا ولدي .

هذه المرأة الفاتنة التي تتقدمك إلى الباب في كل مرة تستقبل زوّارك الكثار ، يلفُّ جسدها الشهي فستان في حمرة الدم .. أي شئ تفعله ؟

هذا الذي يجري أمامي .. أنا لا أعرف كيف أراه على حقيقته .. ماذا يحدث هنا يا ولدي ؟ أخبرني ، وإن كنت أدرك أني لن أفهم مما ستقول ، إن قلت ، شيئاً .. فكيف يرقى فهمي إلى مرتفعات حياتك هذه ؟!

شئ يتلوى في صدري يا محمد .. يفح مخيفاً ، وأنا أرى النقود تتدفق في جيبك بلا حساب من جيوب هذهالبدلات الفاخرة التي تتحرك بأصحابها داخل «الفيلا» ، وتختفي ليظهر غيرها بلا انقطاع .

ماذا هنا .. !

ضحكات المجون وصخب العبث ، وقرع الكؤوس خلف الأبواب المغلقة .. وضباب الدخان الأزرق .. والفساتين الناعمة حول أجساد الخليعات ، التي تلعب فيها الشياطين وتتغامز .

ماذا فعلت بحياتك يا ولدي !

لا أدري ، والرعب يلفني لماذا أتصور نفسي وسط هذا كله ، كالراهب الجديد حين تجرى عليه في الدير صلاة الموت ، ليصبح بالنسبة لشخصه القديم ميتاً .

تدور بي الأرض وأنا أتخيل هذه النقلة الهائلة بين حياتين .. فمن أية أشياء هذه القاعدة التي تسند إليها ظهرك ، لكي تعيش هذه الحياة ؟

ثمة تطلعات لك كنت أحسها .. فهل إلى هذا القاع الذي تحسبه القمة كانت تقودك ، لتزحف فوق التراب ؟

ماذا صنعت بحياتك يا ولدي !

أنا ذاهب يا محمد فدعنى لا تنادنى .

تسألنى بدهشة لماذا جئت إذن ؟ تريد أن تعرف ؟

بمرارة نفسى وألمى الممض أقولها ، وأنا واقف على عتبة «الفيلا» التى تموج فى طابقيها حياة لبستها ولبستك ؛ لأن عينى لم تر ملكاً فى حياتى أبداً ، ولا رأت قصراً .. جئت لأراك

جريدة التعاون ـ مارس ١٩٦٧

الثـــأر

حتى عودته فى منتصف الليل ، كانت قد عبرت بها ثمانى ساعات قلقة ، يضغطها الأسى والشفقة .. لم يكذب إحساسها حين تصورت زوجها ، حامل الخمسين عاماً ، على هذه الحال ، كما تراه الآن .. كانت تشفق من هذه اللحظة التى لا تود أن تراها .

مضت ترقبه وهو يدور فى صالة الشقة ، كسجين زنزانة ضيقة .. وجهه معتم كنظراته ، التى لا تستقر على شئ .

- كيف تسمحين !

قالها غير مرة ، فردت مهونة :

- إنه ولدها على كل حال .

لكنه يردد كالمستغرب :

- كيف هذا ! لماذا أسلمتيه لها !

- أليست أمه ؟

ويدير وجهه فى يأس نحو الحجرة التى كان ينام فيها الطفل .. فتقول كأنما تستغفره :

- ندمت المرأة .. وأكلها قلبها على الولد .

يغمغم كأنما يوحى إلى نفسه أن الأمر لا يصدق :

- لا أدرى كيف عرفت مكانه .

اقتربت من زوجها فى إشفاق :

- جارتنا كانت تعرف حكايته .. وجاءت بأمه .

غاب عن عينها حينما انفلت إلى داخل الحجرة ، كأنما هناك شيئاً جذبه فجأة .. ترددت بعض الوقت ، قبل أن تطل عليه من خلال الباب ، لتراه يقف جامداً عند السرير ، يحدق .. مضت لحظات وهى

تتأمله .. تحرَّك وجلس قبالة الصندوق الأسود الملقى بين السرير والحائط .. خفق قلبها حين مدَّ يده ليرفع غطاء الصندوق ويتناول من قاعه شيئاً نبض قلبها لرؤيته .

أحسَّ بها تدخل الحجرة ، فرفع رأسه والتفت نحوها .. التقت نظراتهما لحظة عاد بعدها إلى إطراقته ، يقلب البندقية فى يديه :

ـ تذكرين حكايتها .

وكيف تنسى ؟

ـ من أول يوم ضربوا فيه المدينة .. وأنا أفكر فى التدرب عليها .

ـ ولماذا لا ؟

قالتها وهى تتخيله بأعوامه الخمسين ، يحمل البندقية مع الرجال والصبيان ، الذين رأتهم من أيام يتدفقون تحت قنابل العدو من كل اتجاه ، ليأخذوا مواقعهم .

هزَّ رأسه بابتسامة انزعجت لها .. أتراه لم يعد يؤمن بشئ ؟

ـ لأجل من ؟

التقت عيناه بعينيها لمحة ، فأدار وجهه المغلف باليأس والأسى :

ـ راح الولد الآخر .. ولم يعد لنا ما ندافع من أجله ..

اعتصر قلبها الألم ، لكنها قاومت .. أجل هى تشعر تماماً أن شيئاً تغيّر أخيراً فى حياتهما .. حقاً لم يدم الأمر غير أيام قليلة ، لكنه خلَّف أثره فى قلبيهما .. لم يعد يتردد فى البيت صوت الطفل الذى عثرت عليه مُلقى عند ضفة القنال غرب المدينة .. لن يعود زوجها يحمله فى حب ، ويتأمل بشغف وجهه الأحمر الصغير .. ويمسك بأنفه الأفطس مداعباً ، ويلتفت إليها مبتسماً :

ـ ماذا كنت تقولين لأنف طفلنا لكى يصغر ؟!

تبتسم .. وتهفو روحها إلى ولدها الذى ذهب من سنوات ، لكنها تغالب الذكرى ، وتدنو من زوجها الذى يترك لها أنف الطفل ، بعد أن يدعكه بلطف .. تمسك الأنف الأحمر برفق بين إصبعيها وتردد هاشة فى حنو :

ـ النبق فى السوق .. النبق فى السوق !

ويضحك زوجها فى سعادة .

سمعته بعد صمت :

ـ لا أحب أن أخدع نفسى .

أطرقت ولم تنطق بشئ .. استيقظ المشهد بظلاله الآسية تحت عينيها ، والدمع يزحف إليها فى بطء ، كأنما يعتصر روحها قبل أن يجتمع قطرات سالت متمهلة على خديها ، وتساقطت على أرض الحجرة : فى موضع القلب الصغير ، كانت الرصاصة التى أسكتته فى صباح كئيب .

احتجبت الصورة حين سمعت خطواته قرب الباب ، فأسرعت تمسح دموعها .. وحملقت فيما تخيلته فى يده .. انتابتها دهشة تلاشت لفورها ، عندما تبينت أنها واهمة ، وأن عينها خدعتها .. نعم ، فلماذا سيمسك بهذا الشئ الذى لم يعد يؤمن بجدواه : تلك البندقية التى كانت لولدهما ، والتى سقطت بجانبه ، حين صرعته رصاصة اليهود الغادرة ؟

خرج إلى الصالة مرتين ، لا تدرى ماذا فعل خلالهما ، وعاد .. وفى كل مرة ساورها ذلك الشعور الذى يلازمها فى البيت الخالى طوال السنوات .

عندما التفتت إليه ، كان مستلقياً على السرير ، مُغمض العينين كالنائم .. قامت ، وفى أعماقها تعاسة ، فأطفأت النور ، واستلقت

بجواره .. أصغت إلى أنفاسه المترددة ، وفكرت كسيرة القلب : ترى ماذا يحدث لو استلب الموت يوماً هذه الأنفاس ؟ ارتجفت : أيمكن أن تتقوّض حياتهما بعد هذا العمر كله ؟ تملكها الخوف ، فالتصقت به مرتعشة .

في الصباح قال :

ـ سأعود قبل الظهر لأرافقك إلى المحطة .

سألت وهي تخفي اضطرابها :

ـ وأنت ؟

رد باقتضاب :

ـ تعرفين أني مضطر إلى البقاء من أجل عملي .

نزل السلم في عجلة ، فحدقت خلفه لحظات همت أثناءها أن تستمهله ، لتقول له إنها لا تود أن تغادر المدينة ، وتتركه وحيداً.

مرَّ بها بعض الوقت وهي تتخيله هناك ، في دكان البقالة يؤدي عمل اثنين ، هاجراً بأسرتيهما إلى المنصورة ، حيث يريدها أن تذهب ، لتبقى هناك بمأمن من قذائف العدو ، التي تنهال على المدينة من وقت لآخر .

كانت لا تزال واقفة في الصالة ، حين سمعت صوت طلقات مكتومة .. أسرعت مرتجفة إلى النافذة التي تجلس عندها ، لتتسلّى بمراقبة الطريق ، عندما تضغط قلبها الوحدة .. وتبينت مصدر الصوت ، حين رأت جارتها في الشرفة المقابلة ، تنفض التراب بالمضرب عن حشيتها المطروحة على حاجز الشرفة .. ومضت لحظات قبل أن تسترد أنفاسها ، وترفع أصبعها إلى جبينها ، لترد تحية الجارة التي أومأت إليها مبتسمة .

ومن فوق الجارة بدت سماء السويس نقية صافية .. بالأمس احتجب هذا الصفاء خلف دخان أسود كثيف ، تصاعد من أنابيب البترول ، التى ضربها اليهود بقذائفهم ، فى منطقة الزيتية هناك .

فى البداية تماسكت عند سماعها دوى الانفجارات من بعيد .. لكنها ارتعبت حين بدت الطائرات تئز فى سماء الحى ، وتلقى بقذائفها ، فجرت نازلة إلى الطابق السفلى ، كما نصحها زوجها ، لتحتمى فيه مع سكانه .. ونسيت فى دوامة الرعب أنهم غادروا البيت إلى حيث لا تدرى .. ووجدت نفسها فى الطريق ، تجرى مع الفارّين فى محاولة للاختباء فى مكان ما .

وحين توقف أخيراً كل شئ ، كانت قد شهدت بعينيها رجلاً يحترق داخل كابينة سيارته النقل .. وامرأة طارت ذراعها بشظية ملتهبة .. وبائع خضر يسيل الدم من مؤخرة رأسه ، يندفع بعربته اليد وسط الدخان والشظايا ، ليحمل المرأة المبتورة الذراع ، على ظهر العربة إلى مبنى الإسعاف .. أما هى فصرخت برعبها مستنجدة بشابين ، ليسرعا إلى عجوز يئن بجراحه خلف كشك السجائر ، الذى دمره أحد الصواريخ .

دوى صفير قطار فارتجفت .. وقامت متجهة إلى النافذة المطلة من بعيد على ضفة القنال .. وقفت تحدق متشبثة النظرة بالأقدام الدنسة ، تذرع رمال الصحراء فى الجانب الآخر ، وسمعت نفسها تتساءل متى تحل نهايتهم ؟ وهزها الشوق واللهفة إلى اليوم الذى سيأتى .

مرة أخرى ارتفع صفير القطار ، فانتبهت ، مع دهشتها ، إلى أنه القطار الذى ستغادر به مدينتها الغالية ، وزوجها لم يجئ بعد .. أتراه قد عدل عن فكرته !

وتساءلت مثقلة بالألم ، لماذا هو ليس كالآخرين ؟ يقيناً لم ينسَ ما فعله أبناء مدينته فى المرة السابقة ، وما قبلها .. ولدهما الذى ذهب ، أكان يلهو مع رفاقه بتلك البندقية يومها ، وطلائع العدو هناك على مشارف الخليج ؟

حين عاد كان نظرته تحمل شيئاً لم تستطع إدراكه .. سمعت فى البداية كلماته المتفرّقة ، ومضى يتحدث وهى تنظرفى وجهه متأملة ، ومضت تطل على أعماقه بدهشتها .. ماذا يمكن أن يحدث فى ساعات قليلة ، ليتغير هكذا ؟ والتقطت ، قبل أن يدخل الحجرة ، كلماته بكل وعيها .. لقد عاد الصبيان الذين أجبروا على ترك المدينة ، أول أمس .. عادوا متسللين فى الليل ، كولدهما فى تلك الليلة البعيدة ، ليأخذوا مواقع المقاومة فى أحياء المدينة .

ودخلت الحجرة بعد لحظات .. وجدته يرتدى ثيابه فى عجلة ، وحدقت فى البندقية المسندة إلى الحائط أمامه .. كانت لامعة نظيفة ، لا يبدو عليها غبار الأمس .

مجلة القصة ـ ديسمبر ١٩٦٥

سلم إلى السماء

منذ وقع الحادث ، والشيخ عبد ربه حبيس المسجد ، لا يغادره .

ومن خلال الباب الموارب ، كنت أراه ، كلما رافقت أبى شيخ المسجد ، قابعاً فى حجرته الضيقة الملاصقة لمدخل المئذنة .. يدفن نصف وجهه فى مصحف كبير ، كان هو الشئ الوحيد الذى يستغرق كل أوقاته .

مرتان ، أو ثلاثاً ، لقيت فيها الشيخ عبد ربه فى الميضأة يتوضأ ، فطالعتنى نظرة صامتة ، ظللت بعدها نهباً لمشاعر الرثاء والعطف والإشفاق .

كلُ من يعرف الشيخ عبد ربه ، كان يقول إنه صائرٌ حتماً إلى الجنون .

وأبى يقول إنه كان أذكى من عرف بين طلبة معهد المنصورة الأزهرى وأوسعهم اطلاعاً ، وأنه لو واصل دراسته بالأزهر ، لصار ذا شأن كبير .

وكلما ذكره بعد وقوع المأساة ، قال راثياً لحاله :

- مسكين ! ... نكبته بفقد ابنه الذى بقى له من أسرته أطاشت صوابه .

فيتمثل لى ، على الفور ، وجه ابنه «الأستاذ يوسف» كما كان يلقبه أبوه ، حتى قبل تخرجه ، ليصبح مدرساً ، برقته ووداعته . وينساب فى صوته الندى ، وهو يردد آذان العشاء .. وابتهالات الفجر ، من مئذنة الجامع ، بدلاً من أبيه .. وأذكر ما يحدث من الشيخ عبد ربه حين تنتابه تلك الحالات المفاجئة ، فينتفض بعد أن يؤذن للصلاة فى مدخل المسجد ذى الدرج الرخامى العريض ... وصدى صوته الخاشع الحزين لا يزال

يتردد فى أسماع المصلين .. ويصبح فيمن يجده إلى جواره :

ـ كان يناجيه من فوق .. كان قريباً منه .. فأخذه عنده .

وترتفع عيناه ببريق غريب إلى المئذنة ، التى حرم على نفسه صعودها ، منذ سقط ابنه من فوقها ذات فجر من رمضان .. ثم يخفضها إلى الدرج الرخامى ، يحدق فيه ويهمهم بوجه يضطرم :

ـ رأيتم جسده عندما سقط هنا .. وأنا أيضاً .

ويبتسم فجأة ويزعق :

ـ لكنكم لم تروا الشئ الذى رأيته ساعتها ..

ويلوى رقبته هازاً رأسه هزات متلاحقة .. ثم يبتعد مهرولاً إلى حجرته وهو يردد :

ـ لن أقول أبداً ما رأيت .

مرة واحدة قابلت فيها الشيخ عبد ربه تلك الليلة .

كانت ليلة المعراج التى ازدان فيها المسجد الرحيب وتوهجت داخله أضواء الثريات الكبيرة .

وكان الوقت قد مر بى قرب المحراب وحدى ، بعد صلاة العشاء ، أستعيد فى تأمل وفضول ، حديث أبى مع المصلين عن المعراج ، الذى تعرج عليه الأرواح عند الموت إلى السماء .

وفى أذنى لا يزال صدى مصمصة الشفاه اندهاشاً وإعجاباً ، بخارقة الإسراء ، ومعجزة المعراج ، الذى رفع به النبى إلى الملكوت الأعلى .

ورحت أتخيل فى انبهار تلك الصور الرائعة ، التى وصف بها النبى المعراج :

(فلم أر شيئاً أحسن من المعراج .. وهو مرقاة من الياقوت الأحمر) .

وإذا بى أسمع صوت الشيخ عبد ربه ينبعث من حجرته متهدجاً يردد فى خشوع وإيمان .

(ولقد رآه نزلة أخرى .. عند سدرة المنتهى .. عندها جنة المأوى .. إذ يغشى السدرة ما يغشى .. ما زاغ البصر وما طغى .. لقد رأى من آيات ربه الكبرى) .

وما كدت أنهض من مكانى ، حتى رأيته منتصباً إلى جوار المنبر بقامته المديدة وعوده الجاف النحيل ، يحدّق فىّ بدهشة وإنكار ، وكأنه يرانى لأمرة مرة .. وشيئاً فشيئاً لانت ملامحه بترحيب صادق .. ربما لأنه تذكر فىّ صديق ابنه ، على رغم ما كان من فارق السن بيننا .

أومأ برأسه مرتين :

- تعال !

دنوت منه فى تساؤل يخالطه الود والإشفاق ، بينما تردد لثوان قصف الرعد فىّ جنبات المسجد .

- انظر !!

تلامست رأسانا ، وهو يطل من طاقة مربعة فى الجدار عبر السماء :

- كان السلم هنا ممدوداً فى الفضاء .. ورأيتها .. رأيت روحه تصعد إلى السماء ..

سألت بدهشة :

- من !

- يوسف ! ناديتها بوجيعة قلبى ، لكن شيئاً بهر عينى فسكت ..

واستدار ليلصق ظهره بالجدار ، بينما أومض البرق من الطاقة كشعاع خاطف .. وعاد الشيخ عبد ربه فتحول إلى الطاقة يطل متاملاً :

- يبدو لى الليلة أكثر تألقاً وأكبر نوراً !

ورفع بصره إلى الثريا الكبيرة ، المتدلية من القبة الواسعة ، يشع منها ضوء وهاج .. وانبعث صوته مرتجفاً ، يختلط بصوت المطر الذى بدأ يهطل :
ـ أترى هذا النور ؟ نورها كان أكبر .. كان يلفها من تحت إلى فوق .. وكان السلم منوراً بنورها .. هذا هو الشئ الذى بهرنى فأسكتنى .
وانغرزت أصابعه الرفيعة فى لحم ذراعى :
ـ هل سمعت كلام أبيك عن المعراج ! أنا لم أملك نفسى وهو يتكلم .. كنت أريد أن أزعق للناس الذين كانوا حوله بما رأيته وأحكى لهم !
وانحنى قليلاً ، وضرب فخذه بباطن كفه .. وقال بصوت عميق :
ـ عندما سمعته يسقط من فوق المئذنة جريت لأنظر لكن المهم هو ما رأيته من هذه الطاقة .. أتعرف ؟! لقد كانوا يريدون أن يسدوها وهم يرممون الجامع .. فمنعتهم !
وتحول إلى الجدار ، وقد تغير وجهه ، وصوته المرتعش :
ـ كان مؤمناً وصالحاً وتقياً .. اسأل والدك عنه ! وأنت ؟ هل رأيت منه غير ذلك ؟!
واحتضن بإحدى ذراعيه العمود الرخامى المجاور وهمهم :
ـ لقد قبض ملك الموت روحه بحربته التى من نور .. وأرسلها إلى عليين .. لأنها روح طيبة .
وحملق نحوى ورفع سبابته :
ـ أتعرف ! إنه يحمل حربة أخرى من سخط يقبض بها الروح الخبيثة .. ويرسلها إلى صخرة سوداء .. تحت الأرض السابعة السفلى .
تطلع إلى سقف المسجد المزخرف ، مشرق الوجه ، وردد : الجنة .. الجنة .. أراه فيها الآن كأبيه آدم .. حسن الثياب .. جالس على كرسى من نور .

والتفت إلى بعينيه المتألقتين ببريق دافئ :

-هل حدثك أبوك عن الجنة ؟!

أشرقت ملامحه بالسعادة .. وحدقَ من خلال باب المسجد فى صفحة السماء ، التى بدت بعد انقطاع المطر مغسولة بالصفاء :

-رآها النبى ليلة المعراج .. وذكر أوصافها .

وغمغم كالحلم المشوق : وأرضها بيضاء مثل الفضة ، وحصباؤها اللؤلؤ والمرجان ، وترابها المسك ، ونباتها الزعفران ، وأشجارها ورقة من فضة وورقة من ذهب ، والثمار عليها مثل النجوم المضيئة ، والعرش سقفها ، والرحمة حشوها ، والملائكة سكانها ، والرحمن جارها» .

وزاد تألق عينيه .. وراح يردد :

-أوصافها كثيرة .. كثيرة .. ما أجمل هذا النعيم !

واقترب من الطاقة ، ووضع يده على حوافها ، يتحسسها برفق وحنو :

-إنهم لا يعرفون أى شئ نورانى يطل على من هذه الطاقة ليؤنسنى فى وحدتى .. لا يعرفون !

* * *

وأغلق الشيخ عبد ربه باب المسجد ورائى ، لأفكر فى حيرة ودهشة : أوهماً ما رآه أم حقيقة ؟

لكن ثمة شئ ، على أية حال ، يحسه هو ، يشرق فى روحه ، ليمده بالعزاء والسلوى .

* * *

ظل الشيخ عبد ربه قابعاً فى المسجد ليلة ونهاره ، لا يبرحه .

وكانوا إذا دخلوا بنعش ميت ، ليجروا عليه الصلاة .. حدق نحوه

من ركنه وابتسم ، دون أن يثير الدهشة ، لطول ما ألفوا منه ذلك ..
وترن صيحته عند خروج النعش فى جنبات المسجد طويلة ممطوطة الحروف :

- دنيا .

وتطول فى صيحته الياء وتمتد .. حتى تكاد تبلغ السماء .

مجلة الهلال - فبراير ١٩٧٩

أيام الدموع

أبى كان كبيراً : صدقونى ، فالبعض لا يعرف ذلك الشئ كما عرفناه .

ليت الكلمات تطيعنى .

أبى على الدكة المفروشة بالحصير ، يخبط على ركبته المشرعة بكفه :

- الحياة علينا صعبة .

الأنين فى صوت يحتوينى .

تهبط ركبته ليدس قدمه العارية فى المداس .. إحساس غريب ينتابنى .. لن يعود يقف على قدمه مرة أخرى .. سيفقدها .. يتناول عصاه ليذهب إلى مدرسة القرية .. فيها ينفق أيامه صيفاً وشتاء من أجل مسانية القمح والأرز التى تكفينا بالكاد نصف السنة .

فى الطريق بين المدينة والقرية ، مشيت حافياً ، أحمل مداسى تحت أبطى .. أبى كان يفعل ذلك دائماً ، ليذهب إلى أزهر المدينة الصغيرة .

بيدى الاثنتين أحمل الكنز الذى أعطتنيه أمى ، بنت المدينة النافرة من القرية والضرة العجوز وفقر أبى .. سخونة «اللحوقى» التى بدأت تبرد داخل الخرقة القديمة ، هيجت شهوتى لعجة البيض برائحتها المثيرة .. فكرت أكثر من مرة أن ألتهم قطعة منها بلقمة من خبز المدينة الذى غطت أمى قرص العجة بعدد من أرغفته ، لكنى ذكرت أبى الذى ينتظر عودتى ، فقاومت الرغبة الملحة .

إحساس بالسعادة يحتوينى ؛ لأننا سنشبع اليوم ، وربما الغد أيضاً ، ليس هذا فقط ، بل سنهنأ بأكلة شهية .

عصر الأمس نهر أبى زوجته :

- كيف تتركين الولد جوعاناً ؟

ملأ عواؤها الدار :

- كفاه رغيف الصبح .. أما عاد تحت عينيه غير الرغيفين الباقين !

رفع أبى عصاه فوق رأسها هادراً :

- كفاك نعيباً .. الجيران تسمعنا يا وش الفضائح .

أخذنى من يدى .. مشينا فى دروب القرية .. أبى صامتاً يضرب الأرض بعصاه مع خطواته .. توسطنا القرية .

- تعال ننزل تحت الربح .. نزور العيسوى .

العيسوى رجل كريم .. قالوا إنه كان قاطع طريق وتاب ، فلم يعد يغادر حصيرة الصلاة .

فى مكانه المعهود على مصطبة الدار ، لم نجد العيسوى هناك .. غمغم أبى :

- نطلع فوق الربح .. سنجد الشيخ مسلم فى الدار .

حول الطبلية الواسعة جلسنا .. رائحة خوص النخيل الذى قعد الشيخ مسلم الضرير وسطه ، يضفر منه المقاطف ليبيعها - تملأ أنوفنا .

ألقى ما بيده ، وتحول إلى الطبلية هاتفاً :

- باسم الله الرحمن الرحيم : مدا أيديكما على قد ما قسم .

على وجه أبى بانت السعادة ، حين مددت يدى إلى رغيف من الأرغفة الثلاثة .

بدا لى الأمر غريباً أن نجد طعاماً بهذه السهولة ، وفوق ذلك ملأنى العجب أن يقدم لنا الشيخ مسلم الطعام ، دون أن نبدى حاجتنا لذلك . أتراه ولى من أولياء الله ؟

التهمت نصف رغيفي بلعاً ، مع كثير من اللفت والكبر المملحين .. بدت لي عمامة الشيخ مسلم ، بشالها الأخضر الباهت ، زاهية لامعة ، وأصابعة القصيرة التي يلتقط بها عيدان الكبر .. طيبة حانية .

انتبهت إلى أبي حين مد يده إلى قطعة اللفت الوردية ، يقضمها مبتسماً لي .. يومئ إلى رغيفه الذي لم يمسه لآكله أيضاً .

قالت لي أمي أن أمشي نصف المسافة ، وأركب النصف الآخر بالقرش ، الذي وضعته في جيبي ، لكني كنت فرحاناً بالقرش ، ففضلت أن أمشي المشوار عن آخره ، ليظل جيبي عامراً بما فيه .. سلقتني نفحة الشمس ، فتبخرت من رأسي فكرة الإبقاء على القرش .

ركبت سيارة أجرة تكدس بداخلها مجموعة من الناس ، جلست على ركبتي أحدهم ، وكنزي بين يدي ، احتضنه بحرص .

توقفت السيارة بعد بضعة دقائق .. دمدم السائق لاعناً الكونستابل الذي لمحه يقف هناك ، عند كشك المرور مترقباً وصوله .. صاح بعد أن أطلق سيلاً من الشتائم :

- سنمشي من طريق الترعة لنغور من وجهه .. إنزل يا ولد .

لم أر وجه السائق وسط الأجسام المتلاحمة ، وليس بالسيارة ولد غيري .. سكت ولم أتحرك .. عاد يزعق :

- لن نمر على قريتكم .

ظللت صامتاً .

- إنزل يا تور .. أنا عائد بالسيارة .. ألا تسمع !

انفتح الباب فجأة .. وجدته أمامي :

- لم تنزل بعد .. أصم أنت ؟!

- لكنك .. لكنك أخذت مني القرش !

- أخذك ربنا .. إنزل !

جذبني بعنف من طوق جلبابي .. وطوحني خارج السيارة :

ـ إكسح .. كسحة تأخذك !

ـ أين كنزى .. أين ؟

على الأرض وجدته ملقى .. لكنه كان فارغاً .. أما قرص العجة فكان كتلة طرية معجونة بالتراب على جسر الترعة .

وداخل الخرقة القديمة لم يبق غير الأغفة .

سالت دموعي قهراً وحسرة .

انحدرت من تحت الريح إلى وسط القرية .. الأشياء تختلط أمام عيني الغائمتين .

سمعت دقات العصا على تراب الطريق ، فانغرزت سكين في صدري .. وقعت عين أبي على «اللحوقي» الملفوف بالخرقة .

أحسست بالألم يفرى قلبي .

ـ جئت ؟

في الدار أخذ لقمة من رغيف المدينة ، لاكها في فمه صامتاً .. وجهه مغلف بالحياء ، وشئ كالاشتهاء .

لم يقلها ..

لم يسأل ماذا جئت به داخل الخرقة ، التي لم ترها عيناه من ساعة أن قابلني .

لا يستطيع هو أن يدرك ، ولا أن يخمن ما حدث .. افترش ملامحه يأس صامت .. قال وعيناه على وجهي بنظرة بكماء :

ـ قم هات بعض الملح .

المشاية

حدق العجوز عبر الشارع الطويل بنظرة ضيقة ، وتمتم بالاسم الذى نطقته له ، وصاح فجأة :

-نعم-نعم .. أذكره أبوك .. فى آخر الشارع بيتكم .. ياه ! أنا لا أراه من زمن !

كنت أكلمه فى حرج ودهشة من نفسى .. وأطوى السنوات كلها للخلف بقفزه مضحكة .

-« تأخر عن المشى هذا الولد » .

همهم أبى من فمه الأهتم الذى يلوك فيه الهواء ..

-قلت له فى الشهر الفائت يشترى مشاية .

رددت زوجتى وهى ترمينى بنظرة لائمة ..

غمغمت مشيحاً :

-عندما تتحسن الظروف .

-موجودة .. عند النجار فى شارعنا .. كنت اتفقت معه على واحدة لك !

حملقت بدهشة فى أبى ..

شعشعت عيناه بابتسامة تتدفق بالسنوات .

هززت رأسى متعجباً .

عاد أبى يقول :

-اذهب إليه وأسأل عنها !

قلت للعجوز إنى لا أقدر على شراء واحدة لطفلى حديثة ؛ لغلو ثمنها .

نظرة إلى ببلاهة :

- من أيامها عندى ؟! المشاية ؟!

ابتسم متعجباً وهز رأسه .

تضاعف حرجى ..

- «ما الغريب فى هذا يا بنى ! إنه رجل أمين .. ستجدها بين أشيائه القديمة فى الدكان» .

سرح أبى بنظراته :

- سافرت أيامها منقولاً فى وظيفتى .. وعدت بعدما كبرت أنت» .

صرخ العجوز لنفسه :

- اذكرها .. المشايه .. رسمها لى أبوك ونحن جالسين جنب هذا البنك .

ضرب بيده السطح الخشبى الذى تتناثر فوقه المسامير والنشارة الصفراء .

التفت إلى وجهى وقامتى يقيس السنوات .

هز رأسه :

- كنت وقتها صغيراً تحبو .

مصمص شفتيه نافذاً بنظرته فى البعيد :

- كان يقطع هذا الشارع خمسين مرة فى اليوم الواحد .. يضرب شبابه الأرض .

رفع رأسه إلى أعلى الجدار المتآكل محملقاً .. كانت الأخشاب المصفرة بفعل الزمن مسندة على طوله ، تختفى خلفها الشقوق الرطبة .

وضع يديه فى خاصرتيه وهمهم بصوتٍ منخفض :

- كنت أعلق قاعدتها قرب السقف .

تحركت أصابعه على جنبيه فى توتر وهز رأسه :
- نسيتها لم أكملها .. وأبوك لم يطلبها .
ارتفع صوته لنفسه :
- عجيبة ! أعطانى عربوناً لم يأخذه .
حدق فى أرضية الدكان المشققة .. نظر إلى فجأة :
- ظُهر الغد ستجدها جاهزة .
سمعته خلفى يردد لنفسه :
- يذكرها بعد تلك السنوات ؟!

* * *

كان أبى يضع الصغير على حجره ، يقلم له أظافر يديه بعناية ، والصغير يحاول التخلص منه فى زهق ، عندما دخلت بالمشاية فى يدى ، افترشت ملامحه ابتسامة فرحة .. رفع الصغير بين يديه وأنزله على الأرض .. كاد يسقط فوقه من على الكنبة بساقيه الميتتين .. ثبت عينيه على المشاية .. قال بلهفة :

- دعه يمسك بها !

دارت زوجتى متألقة الوجه بجانب المشاية الزاحفة أمام الصغير المتوكئ على مقبضها بيديه .

ظل أبى يرقب الصغير من فوق الكنبة .. وهو ينقل قدميه خلف المشاية كأنما فى حوض ماء .

حوَّل عينيه ناحيتى .. رفعها إلى السقف محدقاً .. تهدر فى قلبه السنوات .

جريدة الأهرام ٤ ديسمبر ١٩٧٩ .

الزمارة

زغردت صيحات الصغيرة وهى تنزلق من سريرها بلهفة .. وقتها كنت أصرخ فى الولد ليخفض صوت «التليفزيون» حتى أستريح من صخب الكرة وهوسها .

تواثبت الصغيرة نحوى كقطة ، عيناها النعسانتين تضويان بالفرحة .. واندفعت يدها تمسك بجلبابى ، ولسانها الصغير يتعثر بالكلمات .. انتفض إصبعها الدودى مشيراً فى الهواء تريد غزل البنات .

كانت زمارة الصبى فى الشارع تتصايح منادية .

شدتنى الصغيرة من وسط جلبابى ، واتجهت بى إلى الشرفة المفتوحة .. حملتها وأطللت معها بلهفتها على الصبى الواقف وسط الشارع متسربلاً بالحلوى الوردية المنتفشة فى أكياس النايلون .

كانت ثمة امرأة لا تملك فكة من النقود ، تحاوره من شباك بيتها .. ليؤجل إلى الغد ثمن كيس الحلوى ، فيعتذر الصبى لخوفه من غضب الرجل الذى يتسلم النقود منه فى المساء .

ناديت الصبى فصعد يخشخش بأكياسه .. ماداً يده بعصا خشبية منزوعة من شماعة ثياب ، وزمارة من الصفيح خضراء اللون .. كانت رقبته النحيلة غائصة فى ياقة جلبابه المقفولة .. تناولت كيسين من يده السرحة الأصابع :

-البنت صحت على زمارتك .

دون أن يمد يده للقرشين هتف :

-زمارتى ؟! صحيح ؟!

تدحرجت نظرته على وجه الصغيرة بابتسامة تشعشع فى عينيه ..

أكدت له وأنا أدس القرشين فى يده متأملا ملامحه .

نزل السلم يتقافز فى انتشاء بقدميه الحافيتين .

قبل أن يصل إلى باب الشارع زغردت فى فناء البيت زمارته .. مزقت الصغيرة بعشوائية أكياس النايلون وبعثرت أصابعها النتف البلوريه ، فهومت حولها كفراشات .

ارتفع صوت الزمارة يشحن هواء الشرفة .

أنصتت الصغيرة لامعة العينين .. تغضن وجهها فى ضيق لصرخات مذيع الكرة المتشنجة .. رمت الولد بنظرة غيظ .. وتحولت تنظر ناحيتى فى رجاء .

دمدمت باللعنات مهدداً رأس الولد الغارق فى كرسيه محموماً بالصور التى تتنطط أمامه ، فأخفض الصوت بحركة احتجاج .

بدأت الصغيرة تحشو فمها بالقطع الوردية مستمتعة فتذوب لتوها ، بينما ظلت تحملق لصوت الزمارة .

تفجر صراخ الولد كمجنون ، وهاج فى مقعده كمن يهم باقتحام الصندوق الهادر بالصيحات .. اشتعلت غيظاً .. قذفته بالقداحة التى كانت فى يدى .

خرجت إلى الشرفة حانقاً .. كانت ثمة أصوات تنادى الصبى ، ولكنه ظل متجاهلاً .. يتصايح بزمارته تحت الشرفة محاولاً فى سذاجة أن يخرج منها نغماً .

رفع عيناه إلى الشرفة ونفخ فى الزمارة بقوة .. لعل الصغيرة تطل .

جريدة الأخبار ١٥ أغسطس ١٩٧٩

الأكفان فى القاع

ـ كيف عرفتها ؟

صمت مع الضيق المنتشر فى صدرى .. يسأل كيف وهو العارف ! ولماذا الخداع والتغابى وظله لا يكاد يفارقها غير لحظات .

ـ أتعرف أين ذهبت ؟

قال مدارياً غيظة :

ـ كنت أوشك أن أسألك !

ضحك .

ـ صدقنى .. من أول أمس لا أعرف .

أومأ مشيراً إلى الخلف بابتسامة يخفى بها حقده .

ـ فى هذا الركن تجالسها دائماً .. ما دخلت مرة إلا وجدتها معك .

رمقه فى تحد ينتفخ فى صدره :

ـ وتتركنى حين تراك .

قهقه مائلاً إلى الخلف .. كاشفاً عن سنين معوجتين ويداه تقبضان على حافة المنضدة كمخلبين !

ـ طبعاً .

مد يديه فأزاح ستار النافذة .. ورشف من فنجان الكاكاو رشفتين سريعتين :

ـ هكذا .. أفضل .

تجاهل ابتسامته الخفيفة الساخرة .. سحب من جيب معطفه جريدة الصباح .. طقطقت فى يديه بحدة ، ونظر فيها سريعاً :

ـ لم أجد وقتاً لقراءة الجريدة .

طبقها بعصبية وأعادها إلى جيبه

- لم تقل .. ما أخبارها ؟
- تقصد ، أين هى من يومين .
نقر بأصبعه المدبب على المنضدة متطاولاً بعنقه من فوق كتف الجالس أمامه ، يحاصر مدخل الكازينو بعين لامعة ، أشاح عنها الآخر مدمدماً فى نفسه « افتراسى » !
- المسألة ليست لغزاً .
صنع على الشفتين ابتسامة للمرأة التى مرت بجانبه .. وأحنى رأسه برشاقة مصطنعة !
أخرج من جيبه الخلفى حافظة منتفخة بالنقود .. أعطى منها الجرسون قبل أن يقوم للمرأة التى جلست على منضدة مجاورة .
بقى الآخر وحده يحدق فى قطرات المطر التى بدأت تنزلق على زجاج النافذة .. لو أنها فكرت أن تجيء الآن فيجب أن ترتدى معطفاً .. فى عز الدفء تشكو من برودة جسدها الرقيق .. بلا إرادة ، هذا مؤكد ، تضع كفها على ظهر يده لتشعره ببرودتها .. تبتسم فى استسلام :
- يقولون أنيميا .
يذوب قلبه حناناً .
خايلته الآن حافظة الرجل المنتفخة .. كم واحداً دفع لها ليقبض هو

التفت إلى جانبه ليرى ثالثاً يحتل مقعداً على المنضدة الأخرى .. أشغال الرجل تتجدد دائماً .. لكن الأخرى .. أين مكانها الآن ؟!
من بعيد سمع المارش الجنائزى فارتعش .. أدار ظهره إلى النافذة حتى لا ترى عينه موكب الجنازة .. لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من تخيل جنازة أخيه الذى ذهب من أيام قريبة .

الموسيقا تقترب ، لكنه يسمع قهقهة صاخبة من الرجلين ، تخالطها ضحكة عابثة للمرأة .. فالتفت بحدة : « حيوانات » !
جاءه الرجل :
ـ صاحبنا رآها فى القاهرة .
أشار برأسه نحو الرجل الآخر ، الذى خرج مع المرأة من باب يفضى إلى حارة خلفية ليتحاشيا الجنازة .
لحق بهما بعد أن صفع المنضدة بالجريدة التى ألقاها .
الموسيقا تلفه بظلال سوداء كالحزن .
فى هذا الركن المجاور قابلت نظرة عينيها النديتين دموعه حين قرأ خطاباً متأخراً من أخيه الذى ذهب !
كلمته وسألت عن أشياء .. استراح لفضولها فكلمها عن نفسه .. طلبت إليه أن يدعوها لترى شقته فأحس بحرج .. لكنه لم يمانع .. هناك قالت ، بعد أن جلست طويلاً ، أن شقته هادئة لدرجة تثير الملل .. تقلصت ملامحه بالألم لملاحظتها .. نظر إلى معطف أخيه الذى ألقاه بيده هو على أحد المقاعد ليلة رحيله .. قال بأسف حزين :
ـ لم تكن كذلك .. وهو معى .
رنت بالعينين النديتين إلى وجهه الآسى :
ـ لم أجرب فى الحقيقة عاطفة الأخوة .. تمنيت من صغرى أن يكون لى أخ أو أخت .
وجد نفسه يضمها إليه ويضع شفتيه على جبينها .. وارتعش للضمة الثانية .. لا .. لم يطمع فى شىء آخر .. ليس غير الدفء يلتمسه فى روحها الظامئة إلى الأخ أو الصديق .
حين نزلت بعد قليل وأنصت إلى وقع أقدامها على السلم ، لم يخطر بباله أنها صعدت ذات السلم مرات إلى الشقق التى يسكن

أكثرها رجال بلا زوجات .. أطل عليها من خلف النافذة ليرى الرجل على ناصية الشارع فى انتظارها .. ولمح إشارات يديه الحادة ، وغضبها ، ثم ركوبها سيارة أجرة وحدها .. وبقى الرجل يتطلع بغيظ تجاه شقته : لم يكن راضياً عن علاقة « شاذة » كهذه التى بينها وبينه .

- كيف .. أليس رجلاً ! ألا يدفع لك كالأخرين ؟!

ترد ساخرة :

- كفاك الآخرون !

- أما هو ؟

- لا شأن لك به .

- ما بينكما ؟!

- صداقة بالطبع لا تهمك .

- تتعارض مع مصالحى .. هذا الوقت الذى تضيعينه معه ، ما فائدته ، وما يدرينى ما نهاية هذا !

- من الممكن ألا أريك وجهى من الآن !

- جربى ، لن تستطيعى الإفلات من يدى .

- لى طريقتى .

- اسألى غيرك .

- عندى من الشجاعة ما يكفى ..

بتر ضحكته الهازئة حين رآه واقفاً خلفه .. وأدرك أنه سمع ..

- آه .. دعينى أرحب بالصديق الطيب !

جاءه الجرسون ليقول شيئاً .. انتفض واقفاً .. ثم عاد إلى مقعده منهاراً . جمدت نظرته فى الفراغ !

شعر بلمس الجريدة تسحب من فوق المنضدة .. نظر من خلال ضباب قائم إلى الرجل .. وجهه أخرس الملامح ..

خرج دون أن يكلمه .. قام خلفه مسرعاً :
ـ أصحيح .. هي ؟
أجاب صوته وهو يعطيه ظهره ملقياً بنفسه داخل سيارة الأخرة :
ـ نعم . هي .
رماه بنظرة قاسية « ماذا تريد بعد ؟! »
صفع باب السيارة فكاد أن يهرس أصابع يده .. واختفى عنه .
انغلقت يده في تشنج كأنما تقبض على العنق السمين .. هل يمكنه أن يتخيلها تغتال حياتها بيديها ؟
ارتمى جالساً في الركن الخالي الذي ينتظره معها .. لم تبح له يوماً بأفكارها ، رغم عذابها الأخرس .. يقيناً كانت تريد أن تقول شيئاً ، لكنها لم تجد من يسمع لها في لحظة يأسها .
هدر في أذنيه مارش الجنازة من جديد .. أحس بعظامه تتفتت لتتحول إلى كتلة من اللهب .

مجلة الثقافه الاسبوعية ابريل ١٩٧٥

وانكسر المجداف

مرتان يومئ لها بالتحية موسعاً من خطواته ، ليوهمها أنه متعجل في طريقة لأداء شئ أو لزيارة أحدهم بالجريدة ، بعد أن قدم لها شكواه من أيام لنشرها في شكاوى القراء .

كانت ترد تحيته بإيماءة باسمة .. وكان بعدها يتمهل في خطواته عندما يحجبه عنها الحاجز الخشبي المرتفع في الردهة الممتدة .. تتوه نظرته فيما حوله .. يهدئ من ضربات قلبه .. وفي المرآة المقابلة كان يتطلع إلى وجهه الخريفي متأملاً تعاوده الدهشة .

في المرة الثالثة لم ترد للتو عليه .. طالت نحوه نظرتها .. وتشكلت ملامحها الطفلية بتساؤل كاللطمة .

تدارى خلف الحاجز يواجه اكتشاف اللحظة .. تحول الذهول في داخله إلى شهقة عذاب .

نزل السلم يلفه العار .. أفضل أن يصاب بالجنون ليفقد إحساسه . الجنون ذاته حبها .

دخل مقهاه وجلس في ركنه مستخزياً .. بقيت الصورة :

«فلينظر العالم هذا المعتوه الذي أحبني !» واللحظة مريرة ساخرة .. والنصل مسنون طاعن .

تداخل في نفسه : الزمن .. إنه من جديد لن يمكن أن يعبر حاجز الزمن .. تسكع طويلاً في دروب العزوبة حتى انسربت من يديه السنوات .. «سأتزوج .. نعم سأتزوج» ، كان يرددها عندما تحاصره وحدة النهار ، وتطأ قلبه وحشة الليل .. اهتز قلبه : قصة «سافو» ودمعة الشباب يومها حين قرأها : « كلا يا حبيبي .. فلست راحلة معك» .. كان حبيبها ينتظرها بمحطة القطار ليسافرا بعيداً حتى

يستأنفا حياتهما ، حبهما .. «لم يعد قلبي ، يا حبيبي الصغير ، يحتمل هزات الحب بعد أن كبرت .. وأنت بشبابك بحاجة إلى قلب لم ينهكه الزمن» .

والجنون ذاته أن يحبها . . .

من ركنه لمحها على الافريز المقابل مسرعة فى مشيتها .. وثب قلبه باللهفة .. انمحت اللحظة الفائتة .. نهض خلفها .. تمنّى ألا تلتفت حتى لا تراه .. توجعت أعماقه .. لعينيه مثلث النهاية المنتظرة .. قصاص السنوات المهملة .. الخدعة التى صنعها لنفسه سنوات العمر .. الوهم الذى عاشه .. كيف من جديد يستعيد السنوات ؟

توقفت أمام واجهة متجر .. تراجعت خطواته .. كان يخاف أن تلتفت ناحيته فيواجه نظرها المشفقة الساخرة التى تنهش روحه .

تحرك عندما استأنفت سيرها .. كان يحلم أن تكون ، بذاتها ، الدفاع عند إدانته فى محاكمة العمر الذائب .

دخل خلفها كل شارع .. كان يتأرجح على قدمين ترسمان وحدته .. على الطريق .

المحتوى

القصـــة	الصفحة

إصدارات الكاتب : الرواية

١ - أيام من العمر ١٩٥٤ دار الفكر الحديث
٢ - دماء فى الوادى الأخضر ١٩٦٧ دار الفكر الحديث
٣ - الأجنحة السوداء (طبعتان) لجنة النشر للجامعين - دار الفكر الحديث
٤ - الحب فى أرض الشوك ١٩٨٠ كتاب اليوم .
٥ - هزيمة ملك ١٩٨٤ هيئة الكتاب
٦ - الهشيم ٢٠٠٣ دار النيل للنشر
٧ - الجراد والزقاق ٢٠٠٥ دار النيل للنشر
٨ - منار ٢٠٠٦ دار النيل للنشر

القصص

١ - الحياة امرأة ١٩٥٥ دار الفكر الحديث
٢ - الأيام الضائعة ١٩٥٦ (طبعتان) دار الفكر الحديث
٣ - أرواح وأجساد ١٩٥٨ دار الفكر الحديث
٤ - حب وحصاد ١٩٥٩ دار الفكر الحديث
٥ - الإصبع والزناد ١٩٦٠ المؤسسة العامة للتأليف والنشر
٦ - الأعمى والذئب ١٩٨٠ (طبعتان) دار الأمل للنشر
٧ - العشق فى وجه الموت ١٩٨٣ دار المأمون
٨ - حصاة فى نهر ١٩٨٣ هيئة الكتاب
٩ - البحيرة الوردية ١٩٨٣ دار المعارف
١٠ - نزيف الشمس ١٩٨٥ دار المأمون للنشر
١١ - سقوط لحظة من الزمان ١٩٨٦ هيئة الكتاب
١٢ - زائرة الليل (طبعتان) دار الإشعاع . دار النيل للنشر .

١٣- عصف الرياح ٢٠٠٣ دار النيل للنشر
١٤ - شيء لا أملكه ٢٠٠٥ دار النيل للنشر
١٥ - الدائرة السوداء ٢٠٠٥ دار النيل للنشر
١٦ - أقاحصيصى مصرية ٢٠٠٦ - هيئة الكتاب
١٧ - دوائر الحزن - ٢٠٠٦ دار النيل للنشر
١٨ - ايقاع المغيب - ٢٠٠٧ دار النيل للنشر

المسرحية

١ - لعبة الثعالب ١٩٨٤ هيئة الكتاب
٢ - الرقص على الحبال ١٩٨٨ دار الناشر العربى
٣ - حكايات الحى القبلى ١٩٨٩ دار الإشعاع للنشر
٤ - الكل عريان - الخندق ١٩٨٩ دار الإشعاع للنشر
٥ - احضنوا الشمس ٢٠٠١ اتحاد الكتاب
٦ - حديقة الحب - المولود المفقود - أشياء صغيرة ٢٠٠٢ دار الإشعاع للنشر

من أوراق العمر - لمحات من السيرة الذاتية
الجزء الأول - نادى القصة

قيد النشر

الفوانيس - مسرحية
الفأس والبشر - ملحمة روائية فى خمسة أجزاء
تاج من الزهر - قصص
الحلم ● الحب ● الحى القديم - قصص .
من أوراق العمر - لمحات من السيرة الذاتية الجزء الثانى .

السيرة الذاتية للكاتب

- المولد والنشأة مدينة المنصورة .
- بدأ محاولاته الأولى فى كتابة القصة القصيرة فى الثامنة عشرة .
- بدأ فى نشر قصصه بصحف المنصورة : النهار - العيون - البيان . ومجلة الدقهلية .
- فاز بالجائزة الأولى للقصة القصيرة من الإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم عام ١٩٥٦ .
- صدر كتابه الأول - رواية - بعنوان «أيام من العمر» عام ١٩٥٤ . وتوالت اصدراته التى بلغت ٣٣ كتابا فى القصة القصيرة والرواية والمسرحية والسيرة الذاتية .
- ترجمت أعماله الى الانجليزية والفرنسية واليوغسلافية .
- نشرت أعماله فى كافه الصحف والمجلات المصرية وفى معظم الصحف والمجلات العربية والايرانية .
- عرضت مسرحياته على مسرح الدولة عام ٨٩ ، ١٩٩٠ .
- نال جائزة الدولة التشجيعية ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٣ .
- فاز بكأس القبانى فى الرواية عام ١٩٨٠ .
- نال عددا من شهادات التقدير من المؤسسات الصحفية لاسهامه بقلمه فى مطبوعاتها .
- نال جائزة التفوق من الهيئة العامة لقصور الثقافة عام ٢٠٠٠ واجرت تكريمه بقصد ثقافة المنصورة.
- نال جائزة التفوق من الهيئة العامة لقصور الثقافة عام ٢٠٠٣ واجرت تكريمه بقصر ثقافة دمياط .

- شارك فى عديد البرامج والأركان الاذاعية منذ عام ١٩٥٦ .
- أدرج اسمه فى موسوعة الشخصيات البارزة فى مصر الصادرة عن هيئة الاستعلامات وزارة الثقافة .
- عضو مؤسس اتحاد الكتاب - عضو مجلس ادارة جميعية الأدباء . عضو نادى القصة . عضو رابطة الأدب الحديث . عضو اتيليه القاهرة . [عضو جماعة «قراءة» للنقد والترجمة] .
- أجريت معه عديد اللقاءات التليفزيونيه والاذاعية .
- أجرى تكريمه بنادى القصة فى احتفالية يوم الكتاب العالمى ٢٠٠٥ ونال درع النادى التذكارية .
- اجرت تكريمه بمركز شباب الزيتون لعام ٢٠٠٧ ونال درع المركز التذكارية

دار النيـــــــل
للنشر والطبع والتوزيع
١٢ شـارع عبـده بدران
م. الباشا-المنيل-القاهرة
ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الإيداع لدار الكتب
٢٠٠٧/٨٤٤٥
الترقيم الدولى
I.S.B.N.: 977-8445